المرأة والسياسة

سارة بنت محمد الخثلان



العبيكان
Obeikan

سارة بنت محمد الخثلان
المرأة والسياسة
العبيكان

تصوير
أحمد ياسين

المرأة والسياسة

المرأة والسياسة

سارة بنت محمد الخثلان

تصوير
أحمد ياسين

تويتر
@Ahmedyassin90



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخثلان، سارة محمد

المرأة والسياسة/ سارة محمد الخثلان - ط١.- الرياض، ١٤٢٨هـ

٢١٠ص ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٥-١٨٣-٥٤-٩٩٦٠

١- المرأة والسياسة أ- العنوان

ديوي ٣٢٣,٣٤ ١٤٢٨/ ٢٨٣

رقم الإيداع: ١٤٢٨/ ٢٨٣

ردمك: ٥-١٨٣-٥٤-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمـــز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم
أحمد ياسين

المحتويات

الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

لحظة البدء

في أمسية تناثرت فيها النفس شظايا مما يحدث في عالم كنا نحلم به بستاناً يعطي لنا التمر من نخيله، مثلما أعطى لنا الزيت، الذي وا أسفاه جعله المجرمون وقوداً تشوى به أكباد الأطفال وأمهاتهم، كنت أنتظر برنامجاً حوارياً، يؤكد أصحابه بأنه يذاع على الهواء وتطرح فيه الآراء الحرة، هذا البرنامج كان قد اتصل بي المنسق له طالباً مني المشاركة فيه والحلقة خاصة بالأطفال ووضعهم النفسي في الحروب، والأطفال عشقي الكبير كامرأة وأم تحب الأطفال وتفهم الحضن الدافئ كيف يكون، هنا قلت لنفسي لنشارك فيه، وعسى أن تكون المشاركة مجدية ولعل التوفيق يكون حليفي فأغرس زهرة عبر الأثير، وربما تغدو أنفاسها جزءاً من أنفاس الريح التي تلقح بقية أزهار الحقل، وبدأ "الحقل" أو البرنامج الذي يختلف فيه من يختلف ولا يتفق فيه من يريد الاتفاق، فالرفاق تفرقوا، ولا شيء هناك يتفق عليه!!

كان الحوار يدور عن كيف نحمي أطفالنا من التلوث الفكري الذي يصبه الإعلام عليهم!!

ومرت الدقائق طويلة، مملة بالرغم من الموضوع الذي كان من المفترض قد أوحى لمستمعيه بأنه سوف يكون ساخناً حتى الإذابة ولم يكن!!

في البدء انطلق رجل يتحدث بطريقة إلقاء الأوامر التي لا يُنتظر تنفيذها: يجب أن يُبعد طفلنا عن مناظر الحرب والشقاء التي تصب على أرضنا وهو غير مؤهل لذلك!!

متحدث آخر قال: يجب أن يُبعد الطفل عن كل ما ليس من تعاليمنا ولم يشرح أي تعاليم يعني؟!

وآخر، قال: إن ما يجب أن نؤكد عليه هو أن لطفلنا خصوصيته!

رابع، قال: إن طفلنا شغل بالألعاب الإلكترونية التي (جلبت له) ولم نعلمه الفروسية وكيف يتحدث، وكيف يحاور، لقد شغلت أمه عنه، هكذا أكد الرجل الذي كان يتكلم بهدوء وطمأنينة غير مبالٍ بدور الأب الذي برّأه من كل دور!!

وأتى دور رجل من جنوب الأرض، سبق آخر من شرق البلاد أو غربها ربما، فالهم سواء، قال ذلك الرجل: تلك الحرب، ويعني الحرب الأمريكية البريطانية على العراق، علمتنا السياسة:

تصور، طفلنا الذي يحبو في تعليمه الأولي، تعلم من تلك الحرب كيف يتكلم عن سياسة الدول وكيف يحلل منحنياتها وكيف يدخل في متاهاتها وتصور -أيها العزيز- حتى المرأة تعلمت السياسة!!.

هنا في هذه اللحظة، التي أضاف فيها الرجل من جنوب الأرض (المرأة) بشكل استثنائي، للذين تعلموا في تلك الحرب (السياسة).



دُرتُ أنا (المرأة) التي ظنت (ظننت أعني) أن عصر الجهالة قد ولى وحل محله الوعي!.

درت حول طاولتي الصغيرة رحلت في دورة لولبية تحملني عاصفة لون أتربتها حروف أبجدية، حول العالم، لا ألوي إلا على روح البحث، درت أبحث عن الحقيقة المتناهية البساطة، رحلت في دورة لم أعُد منها إلا وبقاياي تتفرق في كل زمن مضى وفي كل مكان مرت به ذات يوم، أنثى لا تنسى.

إنها إنسان حملت لون الأنثى وجمال الإنسان، لم أترك مكاناً مررت به إلا وبقيت مني هناك بقية، تركت بقايا علامات استفهام بحجم جبال الجنوب!؟

من يعيد لي بقاياي التي فرقوها شظايا؟

من يعيد لي لحظة إنسانيتي التي سرقوها؟

من يعيدها إلى لحظة البدء الجميلة التي سارت فيها حواء مع آدم صديقين وشريكين لا يفترقان في رحلة الحياة التي لابد أن تضمهما معاً؟ ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: 13).

إني امرأة من آدم ومعه سرت ومعه أسير، لا قبله ولا خلفه.. سرت معه، أريد وطن الحب، وأركض معه، في اتجاه العطاء الممدود واللاممدود، اتجه معه في الحزن والشقاء، أتجه معه في

الارتفاعات وفي الانحناءات، لا ننحني لأحد غير رب العالمين الذي خلقنا وأرسلنا لنقيم العدل الذي أمر به.

من يخبر هذا الرجل أن آدم عليه السلام لم يستطع أن يسير وحيداً كان يحتاج شريكاً لذلك منحه الله الأنثى؟

من يخبره أن أباه آدم لم يسر إلا وأمي حواء إلى جانبه تشد من أزره ويسكنُ إليها؟ ﴿ **خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا** ﴾ (الروم: 21).

من يخبره أن ثمة مخلوقاً من ذات الطين الذي خلق منه هو، وعلى شاكلته هو، بل وأجمل، يشاركه عمارة الأرض التي خلقهما الله إلى عمارتها؟

من يخبر هذا الرجل أنها صنعت حضوراً متألقاً على مر العصور، بالرغم من محاولات التغييب التي اجترأت على رقبة الحقيقة ثم علقتها على المشانق؟

في دورتي اللولبية حول طاولتي الصغيرة، درت الكرة الأرضية في أزمنتها البعيدة المتوالية، ركضت حول القارات حافية القدمين لا يحميني إلا ثوبي الرقيق الذي حاولوا انتزاعه مني أو نزع أجزاء كثيرة منه، بحجة تجميلي في أعينهم وتطويري!!

ركضت حافية القدمين فوق الصخور وبين السهول، وحين أردت أن أرتدي الحذاء صنعوا لي حذاء يختلف، وضعوا تحته



شوكة كي لا أستطيع أن أنجو بنفسي إذا حان الركض، يقولون هكذا يكون الحذاء أجمل!!

آه يا أمي يا حواء آه من رحلتي الطويلة كم أنهكتني..

كلما حاولت أن أستريح وجدت أن هناك من يقف لي بالمرصاد.

إنهم يحملون أقلاماً غلاظاً يحفرون بها حُفراً واسعةً ليسقطوني بها.

أنا الأنثى الجميلة التي يقولون إن ثيابي تثقل كاهلي!!

لم أجد نفسي إلا ملاحقة أو منبوذة، كانوا لا يملون المطاردة إلى أن تأتي الحاجة إليّ، وكثيراً ما تأتي هذه الحاجة، ولكنهم لا يعترفون، يبهرهم وضعي هنا، ويبهرني وضعي هناك، يقول الكاتب الصحفي الأمريكي"مارك توين" وقد عاد من رحلة له إلى مصر في أواخر القرن التاسع عشر: "إنه يوجد في مصر ثلاثة حيوانات كافية فقط لحاجات أهلها، وهذه الحيوانات هي الجمل والثور والحمار، ولكن إذا جاز التوسع في ذلك فقد يصح أن يضاف إليها حيوان رابع هو "المرأة"؛ لأنها تشبه الجمل والثور والحمار كل التشابه من حيث إن الشقاء كله واقع عليها، والصبر كله مطلوب منها. وأضاف لكنها قد تختلف عن تلك الحيوانات بأنها تنفع.. وأما تلك فلا"[1].

(1) مصدر زيدان عبد الباقي، المرأة بين الدين والمجتمع صفحة: 431.

من مقالة له ترجمتها الكسندرا أفرينو في مجلتها أنيس الجليس التي كانت تصدرها في مصر بين 1898 - 1908م.

الحيوانات الأربعة وهل أخطأ مارك توين؟

تقول الكسندرا أفرينو: "إن المرأة في مصر تكاد تكون أشقى مخلوق فيها، لكثرة جهدها وفرط صبرها واحتمالها، ولذلك تجدها: حارثة الأرض، حمالة للأثقال، سائقة للبهائم، ومشاركة لها في كل أعمالها، ثم هي فوق ذلك، أم"[1]، السؤال هل أخطأ مارك توين؟

أتفق مع الكسندرا أفرينو أن المرأة تتحمل أكثر مما تتحمله الحيوانات الثلاثة إضافة إلى أنها تعقل وترى كيف تسلب حقوقها الفكرية، إن الحقيقة تصرخ بنعم لمارك توين، فالمرأة يطلب منها الكثير الكثير، فهي التي تشقى كي يكون هذا الرجل على أفضل وجه، وفي كثير من الأمكنة تكاد تكون أكثر مخلوق يطلب منه العمل والإنجاز؛ لذلك تجدها تعمل في الحقل، وفي البيت وفي المكتب وفي الليل وفي النهار، الزوج يريد، والطفل يريد، والمجتمع الذكوري الخائف يحاسبها على تقصيرها!!

هذا المجتمع، وذاك، وأعني به المجتمع الذكوري المهيمن، لم يحاسب نفسه عن الحقوق المغيبة من حقوق الإنسان "الأنثى" لقد غيب الكثير من حقوقها ونسي أو تناسى هذا المجتمع الحقيقة، أن

---

(1) زيدان عبد الباقي، المرأة بين الدين والمجتمع صفحة: 4305.



الله جعل لها حقوقاً كريمة، وهو الذي لم يفرق بين عمل الأنثى وعمل الرجل، فمعيار التفضيل عنده، العمل الصالح، لا الجنس ولا اللون، المعيار كان واضحاً وذلك كان واضحاً في تنزيله الحكيم ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: 13).

لقد ذهبت الحضارات القديمة بأساطيرها وأباطيلها وأتى الإسلام بتكريم وفتح جديد للمرأة، تنفست المرأة أنفاس العدل والانتصار على أوضاع وأوجاع طالت وأسالت الدموع غزيرة، ولكنهم قليلاً، قليلاً أفرغوا هذا النصر من كثير من مضامينه، فكثير من الحقوق الشرعية أخفيت بين طيات الكتب التفسيرية للمتفقهين الذين يفقهون الحقوق الشرعية للرجل على زوجته ولكن الوقت يضيق في التدقيق والبحث عن حقوق الزوجة على زوجها؛ وأبرزت ذرائع المتفقهين في سد الذرائع، التي قالت إن الصداع قد يتسرب يوماً إذا ما قررت المرأة أن تطالب بما منحه الله لها، من تكليف وتشريف!!

لقد ساوى الله بينهما في القيم الإنسانية وجعل معيار التفضيل هو العمل الصالح كما تقدم ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: 13)." وهناك الكثير من الأدلة التي تمر أمام أعيننا مرور الكرام وإن دون تبجيل أو تحفيل، ساوى بينهما في الإيمان ﴿**مَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾ (النساء: 124).

هل أستمر في ذكر الحقوق التي تمر كما قلنا مرور الكرام؟

في غالب الأمر لن أستمر؛ لأن هناك الكثير الذي لا أستطيع حصره والكثير الذي قد يعلمه الرجل في الجنوب وفي الشرق وفي الغرب ويمر أو يمرر!!

فقط سوف أتوقف عند شيء له دلالة مرجعية واضحة، ولكن هذه الدلالة تغيب في كثير من الأحداث التي تحدث الآن؛ لأنها فيما يبدو مقلقة للرجولة التي لا ينقصها القلق الذي لم تسببه المرأةفي الحقيقة المطلقة، وهذا واضح جداً لمن يرعى الحقوق ويريد أن يعلم!!

إنه حق الأنثى في أن تفتي، وتُجير، وحقها في أن تدير الأموال والأشغال، لقد كانت عائشة بنت أبي بكر (تفتي)، وقد كان كبار الصحابة إذا أشكل عليهم أمر من أمور الدين يستفتونها فيه فيجدون عندها علماً به، قال أبو موسى الأشعري: "ما أشكل علينا، أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً".

وخديجة رضي الله عنها (سيدة أعمال) كانت هذه السيدة الفاضلة تباشر عملها بنفسها، لا أحد يعيب عليها عملها أو يمنعها عنه، ولكنها رأت الاستعانة برجل يساعدها في أعمالها، ولقد كان ذلك الرجل، رجلاً اختارته بنفسها، إنه الرسول الكريم، أكرم الخلق وأفضلهم، أرأيتم بعدُ أي أمرأة هي وأي اختيار مارسته وأي توفيق



أحرزته؟! لقد اختارت أفضل البشر قبل أن يعرف البشر!! اختارت أفضل الرجال على وجه الأرض، الرجل القوي الكريم الفاضل.

وأم هانئ (تُجِير): جاءت أم هانئ، السيدة فاختة بنت أبي طالب يوم فتح مكة إلى رسول الله فقالت: "يا رسول الله، زعم ابن أمي (تعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه) أني قد أجرت الحارث ابن هشام وإن علياً يريد قتله، فقال رسول الله ﷺ: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ"[1]. لله درك يا رسول الله، لقد علمتهم بعملك هذا، أن للمرأة كلمتها وإسهامها الحضاري، ليتهم كانوا يتبعون كل ما علمتهم.

إذن علمنا أن الفروق البيولوجية المرتبطة بوظيفة الحمل والولادة لم تكن عائقاً كبيراً في وجه المرأة التي أرادت العمل دون أن تستسلم للفروق النفسية والفيسيولوجية التي يضربها المجتمع حولها.

لقد أقصيت المرأة هنا بشكل متعمد من الحياة الاجتماعية تدريجياً ودون قرارات صريحة، ولكنها -أي القرارات- موجودة ويعمل بها، ولها حزب كبير في كل قرية ومدينة، هنا في الشرق المسلم التي أعطيت فيه لها الحقوق، تكوَّنت أحزاب ضد المرأة، مثلما تكونت الفرق التي مزقت وشتت العالم الإسلامي، بفعل قصور العلم وبفعل قصور الذكاء المجتمعي، لقد نجح هذا الحزب

(1) صفحة: 15 أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام الجزء الرابع عمر رضا كحالة.

في إبعاد المرأة عن كثير من الأنشطة التي كان بإمكانها ملؤها لصالح المجتمع الذي لا يمكن أن يرتقي ويكتمل بناؤه دونها، لقد أحبطت المرأة لأن هناك تسلطاً ذكورياً يرفض تميزها، ولقد تميزت المرأة عندما أتيح الحيز الذي مكنها من التحرك، ولكن عندما أغلقت الطرق وبنيت سياجات مجتمع (الحرملك) الذي أتى مع انحطاط الثقافة المجتمعية والثقة في الذات الذكورية، فقدت المرأة توهجها واصفرت أوراقها الخارجية.

هنا في شرقنا الذي أضاء بنور الإسلام وعدله، هنا أبى بعض أبنائه إلا أن يتناسوا أن هناك حقوقاً نصت عليها الشريعة، وأبى بعضهم إلا أن يحكِّم عاطفته غير محكم للنصوص، أبى هؤلاء إلا أن يلحق بحضارات نبعت من أساطير لم ينزل الله بها من سلطان، أبوا إلا أن يلحقوا بالبهو الخلفي لمجلس بني على الأساطير، لقد تتبع بعضنا خطوات ليست في مسار الشريعة ولا مسار العقل السوي، لقد أصبنا بالغرب وبالشرق، توعكت أفكارنا لأننا خلطنا الرباني بالأسطوري، جاءنا الإسلام يقول لنا إن المجال يفتح ذراعيه لكل أبنائه ذكوراً وإناثاً، وبدلاً من أن نستقبل القبلة جميعاً في وحدة ربانية مطهرة من الهوى التفتنا إلى الخلف نركض وراء الأساطير في بهوها الخلفي.

في البهو الخلفي للحضارة:

في الحضارات القديمة والوسيطة وحتى يومنا هذا تظل الأنثى في موقف المتهم حتى لا تثبت براءتها؛ فالعقم مرض يصيبها



هي فقط، والتعب هي من مسبباته في كل الأحوال قبل الزواج وبعده وفي ختامه، فالمرأة تخشى أن يشاع عنها أن تكون عقيماً، وتخشى أن يشاع عنها أن تكون غير مرغوبة، ولقد كان هناك وقت يُنظر فيه إلى الفتاة التي تظل بكراً نظرة ازدراء؛ لأن معناها عدم إقبال الرجال عليها!!

فقد كان العريس إذا ما وجد عروسه بكراً يثور وتصل الثورة إلى أمها مكللة بالشتائم المقذعة فكيف تقدمها إليه هكذا؟!![1].

إنه أهمال الأم إذ يجدها هكذا، أي أن أحداً لم يرغب بها قبله!![2].

هي إذن هي دائماً مدانة في كل العصور، فأرسطو مؤسس مدرسة اللوقيين الفلسفية ومربي الإسكندر المقدوني هذا الفيلسوف الذي أتى من بلاد سادت حضارتها وفلسفتها حتى أتى الإسلام الذي أبطل خرافاتها وبنى العظم الذي ترتكز عليه الآن، حضارة أقمار التجسس لما تحت الماء وما فوق الثرى، يظن أن الطبيعة لم تكن لتتشوه لولا وجود المرأة، ولكن لأن وجودها ضروري

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الأول صفحة: 80.

(2) يرى أرسطو أن علم السياسة هو علم السعادة الجماعية، كما أن علم الأخلاق هو علم السعادة الفردية، وأن وظيفة الدولة هي أن تقيم مجتمعاً يحقق أعظم سعادة لأكبر عدد. أرسطو هو من علَّم الإسكندر، وهو الذي أنشأ مدرسة اللوقيين وقد سمى طلابها بالمشائين وفلسفتهم بالمشائية نسبة إلى المماشي المسقوفة التي كان أرسطو يحب أن يسير فيها مع طلابه وهو يحاضرهم، فلسفة اللوقيين تعني بالتاريخ الطبيعي. ول ديورانت، المجلد الرابع صفحة: 494.

لإنجاب الرجل فإنه: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، طبعاً لم يقلها هو، فواقع الحال هو من يقول.

فما العمل والله سبحانه وتعالى أراد أن تعيش المرأة مع الرجل على هذه الأرض؟!!

يقول أرسطو: إن الزواج "مؤسسة تزودنا بأصح أجساد ممكنة، إنها دور حضانة لدولتنا"!!

هكذا يرى أرسطو دور المرأة؛ لهذا نراه ينصح الأم بأن" تقوم بالتدريبات وتناول الطعام الجيد في أثناء الحمل ما دام الجنين يستمد غذاءه من جسمها، أما ذهنها فلابد أن يظل معطلاً حتى تحتفظ بأكبر قدر من قوتها لنمو الجنين، فمادام الطفل لا يستمد من ذهن أمه فإننا لسنا بحاجة إلى تطوير ذهنها"!!.

هذا ما جاء في كتاب "السياسة الكتاب السابع لأرسطو". إذن في سياسته: العقل لابد أن يظل معطلاً، هكذا يريد؛ لأن سعادته سيكون مستفيداً!!

● في حضارة الهند القديمة[1]:

في رحلتي رأيت أشياء كثيرة يصدقها العقل أحياناً وأحياناً أكثر يقف عندها في ذهول ثم يطلق صرخة لونها، آه.

(1) قانون دفن الزوجة استمر حتى تدخلت السلطة البريطانية المستعمرة في القرن التاسع عشر وحظرت قانون «الساتي» الذي بموجبه يتم حرق الزوجة مع جثمان زوجها!! =



والآه المغرقة في الألم والدهشة أيضاً سمعتها في عصور عديدة وأمكنة مديدة، في الهند، هذه القارة القريبة والمديدة والعديدة رأيت أني أصبحت فتاة جميلة، كبرتُ وطال شعري، أصبح شعري حريراً، بهي السواد، أشرقت أنا في كل النواحي..

هناك رأيت أنهم لفوني بالحرير، حملوني كأنثى إلى من سيمتلكني بضاعة مزجاة، تنجب له الولد، ويا حزن حزني حين أنجبت له بنتاً..!!

زوجي الذكر، بكى، أعلن سوء حظه معي، زوجي الذكر أعلنَ حزنه أمامي ولم يدارِ، أشعروني أنني قد ارتكبت ذنباً..!!

أواه ماذا أفعل لهذا الرجل؟

لا بأس يقولون: ارعي له شؤونه، دلّليه..

حافظي على حياته أكثر من حياتك فإنه حين يموت ستكونين معه في قبره، تؤنسين وحدته حتى ينفذ الأكسجين وتخمد أنفاس الحياة لديك.!![1].

= وقد تعرضت في الحقيقة الحملة على هذه الطقوس الظالمة إلى التنديد بها؛ لأنها تأتي استجابة لقرار استعماري!! ولا أدي في الحقيقة في هذه الحالة من يستعمر من؟.

فأسرة الرجل العريس من الهند تطلب المهر من أسرة المرأة، والمال ينتقل من يد والد العروس إلى يد والد العريس، المال إذن للرجل في كل الأحوال والمرأة لا تربح في هذه الحال إلا الحزن أو الحرق إذ تحرق المطالب بالأعذار الواهية، وكم باسم الاستعمار حرقت مطالب وارتكبت مثالب تخجل منها عين الشمس؟!!.

(1) في عام 1917م في قرية صغيرة في ولاية راجستان أحرقت عروس تبلغ =

الأنثى المحمية:

وليس في الهند وحدها تظلم المرأة؛ فالقوانين البريطانية ليست في معزل عن استعمارها؛ فإلى مطلع العام 1839م حين برزت قضية كارولين نورتون التي تعرضت إلى ظلم زوجها الذي قام باختطاف أطفالهما متهماً إياها "بمحادثة إجرامية ضد اللورد ملبورن"!!

لقد اعتبرت أموالها التي تأتيها من مؤلفاتها ملكاً لزوجها؛ لأن وضعها القانوني -يقع مثلما أطلق عليه سير ويليام بلاكستون في تعليقه على قوانين إنجلترا- تحت "الأنثى المحمية"، وهو قانون يعني أن "الكيان أو الوجود القانوني في حد ذاته للمرأة يتعطل أو على الأقل يندرج ضمن كيان الزوج ويتحد معه؛ لأن الزوجة تفعل كل شيء تحت جناحه وحمايته وغطائه"!

أغطية لا تغطي إلا الحقيقة وهو ما لا أريده.

= من العمر 17 عاماً على محرقة تحرق فيها جنازة زوجها الذي كان قد توفي، لقد حاولت روب كانوار التي ألبست ثياب عرسها أن تتراجع وتنجو من الحرق بجانب زوجها وهمت بالتراجع ومحاولة المقاومة ولكن أخو زوجها دفعها دفعاً حسب طقوس «الساتي»، في ذلك الوقت، وقد قامت حملة لمكافحة هذه الطقوس، ولكن كان هناك من يستفيد، ففي ذلك المكان وضعت بنية أساسية لقيام حركة تجارية نشطة تعتمد تنظيم أماكن للإقامة للحجيج من معتنقي فكرة الساتي الذين يتدفقون على المكان بالآلاف، وغض الطرف عنه لمهادنة القاعدة الانتخابية المكونة من طائفة الراجبوت في السياق الأوسع المكون من الناخبين الهندوس. مصدر النسوية وما بعد النسوية، سارة جامبل صفحة: 120.



على أي حال ومن خلال هذه الرحلة اللولبية التي وجدت نفسي فيها والتي لونها أبجدية زرقاء، سوف نرى أن تلك التي رحلت بالرغم من الشوكة التي تحت حذائها، تثبت دائماً أنها أكثر فاعلية من الذين أعاقوها، إذ إن شفافيتها الشديدة منحتها ميزة إضافية، إنها أكثر رحيلاً وتغلغلاً في الحياة اليومية، هي ترحل وليس عندها الكثير من الوقت لتضيعه. ولا يهمني ما تقوله الكتب الصفراء. إذ إن المرأة تعرف الاحتياجات الأساسية لمجتمعها، وسوف نرى أن الاهتمام يعد صفة نسائية حميمة، سوف نرى، نعم، إنها تحمل طفلها وفي قلبها تحمل الوطن بالرغم من الاتساع.

رحلت بالرغم من الحزن، وبالرغم من الإقصاء الذي نجابه به، إلا أنني كامرأة قرأت وعرفت -مثلي مثل كل النساء اللاتي قرأن- أن التاريخ كان يرحل وهو ممزق الثياب مزقه رجال كانوا أوفياء لأنفسهم فقط!!

رحلنا ونعلم أن سياسة القوانين عند بعض الحكام سياسة غبية، تتخذ في الظلام فتكون عمياء لا ترى ما تحتها.

في الأزمنة البعيدة رأيت أمي دائماً جميلة:

العاصفة اللولبية لم ترتب لي خط سيري، يوماً هناك في الزمن البعيد وساعة هنا في الزمن القريب، في زمن يكتب ويكذب، رحلت في زمن توقف طويلاً في الركود وأوغلت في الجمود غير المحدود الذي لم يوقف أطراف أصابعي وكذلك عقلي عن الحفر

في الدائرة اللولبية، سرت طويلاً لا أنوي التوقف في زمن معين ولا في قارة بعينها ولكني في لحظة فائقة البعد توقفت، وجدتني في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، أتجول في بلاد الله الواسعة أبحث عن وجودي الذي أعلم يقينا أنه كان هناك، أبحث عن أمي حواء، أبحث عن أيامها الجميلة، أبحث عن تلك المرأة الجميلة التي أوصاني الله بها كثيراً ماذا كانت تفعل؟ وماذا كانوا يفعلون بها؟

زرت بلداناً كثيرة، بعضها أحببت البقاء بها قليلاً وبعضها لم أبق بها إلا لحظات أو ثوان، ودائماً تذهلني أمي الحبيبة في صبرها، إنها الأم التي أنجبت هذا الكائن الجميل وكفى.

أعود دائماً إلى لحظة البدء في المسار اللولبي الذي لا نستطيع أن نحدد لحظة البدء به في الحقيقة، ولكننا نستطيع أن نبدأ من أي نقطة نجد أن أقدامنا تستطيع الانطلاق منها، فشرق، امرأة بدأت رحلة الألف ميل، وغرب، امرأة واصلت المسير، والرحيل لا يتوقف في الشرق ولا في الغرب نرحل دائماً، وبقيت لحظة الإمساك بالثوب المهترئ، ثوب التاريخ العتيق، إنها لحظة عاصفة في مهب الريح لا تتيح لي الركون إلى الوقت، ولا الركون إلى ما يخفيه أبناء التاريخ الذين ولدوا يحملون جينات الإخفاء، أعلم ذلك، وأعلم أن هنا في أرض الخليج، في هضاب نجده وحجازه وبين أمواج بحره العربي وخليجه الهادي وتحت بحره الأحمر، محارات تملأها اللآلئ، هناك نساء برعن في الذكاء وفي الدهاء، هناك نساء يجب أن يأخذهن هذا الشيخ العجوز إلى قاعات التشريف،



إني أرحل أحـملهن في قلبي ولكن دائي العضـال إنني لا أستطيع الوفاء لهن بكامل عنفواني الموجود في أعمق أعماقي؛ لأن جيناتي مازالت تلمس وترى أن هناك فيروسات مازالت تريد العوم في بحر الخليج وبين صخوره ومرجانه الذي بعدُ مازالت حقن المناعة لم تأخذ مجراها فيه، وإلى أن تأتي تلك اللحظة التي لابد آتية على حصان من حروف أبجدية، فإني سوف أسيرُ أتوكأ على قلمي، بالرغم من الظروف التي تنهال على دربي.

وأعلم أن دربي لن يكون مفروشاً بالورود بالرغم من أني أحبها وأزرعها، سوف أسير على هذا الدرب أحفر بقلمي دروباً للأحبار الزرقاء مثل البحر.

وأقولها إن أرضنا أرض خصيبة وأثمرت وسوف تثمر، أقولها ولست أقول إني أعلم الغيب أو أدعيه ولكني أحب الأشجار وأرقب الأغصان التي ما زالت براعم تتحرك خلف اللحاء.

ولهذا وبعد أن نعود سوف نرى الحقول الخصيبة، دعونا نذهب إلى كلدان.

كلدان:

في الأرض الخصيبة في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وجدتُ أني كنت أمرأة خائفة، امرأة مرعوبة كنت، كنتُ امرأة متوجلة في كلدان، ترى من ماذا؟

من ماذا أيتها المرأة الكلدانية؟

من الغد!

كانت المرأة تخاف من يومها الذي قد يأتي وقد حمل لها المفاجآت، بعد مدة من الزواج، كان الرجل هناك عندما تشتد به ظروف الحياة لا يتعب نفسه في البحث عن ثروة صغيرة لتسديد ديونه، للبقال أو لبائع الحيوانات التي كان الرجل يحبها كثيراً.

يقارن هذا الزوج الكلداني أيهما أكثر فائدة له، الزوجة أم الثور؟

في هذه المرة معذرة -أيتها الزوجة- لقد وقع عليك الاختيار!!

أنت من سيباع لتسديد الديون.

أتعترضين؟!

لا، لا غير مسموح لك.

أتطلبين الطلاق؟!

لا، إنها كبيرة من الكبائر لدى رجال كلدان وبابل، أتطلبين الطلاق؟

ألا تتذكرين النهر؟!

إنه قريب لابد أن تغرقي به، لا بأس أيتها المرأة، لا بأس لن تعاني كثيراً، فقط قليلاً ثم تغرقين وتغرق الصرخات؛ فالصرخات لا تنقذ الغرقى.



ولكن تلك المرأة التعيسة الأخرى التي ليس بقربها نهر، سوف تعاني، هي التي سوف تعاني كثيراً، إذ يجب عليها أن تخلع ثوبها الأبيض حتى تلبس إزاره، إزار الرجل الذي رفضته، ذلك الإزار الذي لا يستر منها إلا نصفها الأسفل لتخرج لمن يريد أن يجرب عليها رجولته وقوته، لقد كانت طاهرة تلك الزوجة ولكنها القوانين الكلدانية التي ليس للمرأة خيار في تنفيذها.

إن تلك القوانين تلزم المرأة أن (تحج مرة واحدة إلى هيكل الزهرة "ميلتا") وهناك لابد أن تلتقي بأي رجل وتصحبه لمرة واحدة، أحبت ذلك الرجل أم لم تحبه، المهم أن تكون التقت برجل يلقي عليها المال، ويصحبها إلى خارج الهيكل لتنام معه، ثم يقول لها أسأل الربة ميلتا أن تكون عنك راضية . أيضاً ليس لها أن ترفض أو تحتقر المال الذي رمي لها، قل أو كثر، المهم أن تعود إلى بيتها بعد تلك اللحظة المقدسة "لا باركهم الله فيها" وقد حظيت بالمباركة!!.

يقول: هيردوت المؤرخ اليوناني: "ينبغي لكل امرأة بابلية أن تجلس في هيكل الزهرة مرة في حياتها وأن تضاجع رجلاً غريباً. يقول ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسائر النساء فيأتين في عربات مقفلة، ويجلسن في الهيكل!![1] المهم أن تنام مع أجنبي، هذا الحج (غير المبرور) لا يحتاج من الجميلات وصاحبات المنازل العالية إلى وقت طويل لتحقيق مقتضيات الشريعة، ولكن الدميمات كن ينتظرن أياماً وشهوراً وأحياناً إلى سنوات، حتى تروق إحداهن

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الأول الفصل الخامس. صفحة: 229.

في عين أحد الأجانب فيقدم لها المال لتكون له مرة واحدة تعود بعدها إلى بيتها!!

يا له من عذاب لا ينتهي -أيتها المرأة- التي تبقين صامدة في شرائع الرجال، وسياستهم التي تبحث عن المصالح في حربهم غير المعلنة على الحقوق المرأة، إذ يظل صمودك موضع قمع مستمر، وفي كل نجاح تلمع به المرأة تبدأ الأغاني المحبطة، فهي سوف تدفع الثمن!!

كيف؟

سوف تتشتت الأسرة، وسوف تدفع الثمن في انهيار العلاقات الزوجية، والمعاناة، والإرهاق، وعدم إشباع عاطفة الأمومة، و و.. وتلك سياسة مجتمع ذكوري لتقليص الفرص المتاحة للمرأة، إنه حَظْر النجاح، والحظر متاح في يد الرجل بطريقة لا شك ذكية، ولكنها مكشوفة، ومثال يومي، نسمعه في الإذاعة وتقرؤه في الصحيفة؛ وذلك في صفحة من الصفحات لا نبحث عنها، ولكنها موجودة دائماً: إنها ثرثارة، وتلك حكاية ممجوجة!!

تقول عالمة اللغويات ديبورا كامرون في كتابها النقد النسوي: "إن المرأة يمكن إسكاتها عن طريق التحريم المباشر، باستخدام الحظر التقليدي للحديث النسائي في بعض المجتمعات الدينية والسياسية أو عن طريق الستهزاء بما تقول باعتباره ثرثرة فارغة أو حديثاً لا معنى له".



حمورابي[1]:

نعـود إلى القـديم في مملكة حـمـورابـي، كـان وضع المـرأة أقل عذاباً، لأن ذلك الملك أمـيل قليـلاً للعدل، لقـد كـان أكـثـر حناناً في شـريعتـه من شـرائع أخـرى، فـالزوجـة الكلدانيـة التي كـان ينكل بها ويتـخلص من شـرها الذي يظن أنهـا تجلبـه للبيت بعـدم ولادتهـا للأطفـال، أصـبـحت زوجـة بموجب تعـاقـد بين المرأة والـرجل الذي ليس له الحق بأن يتزوج بزوجـة أخـرى مـا لم تكن زوجـتـه عـاقـراً أو مـريضـة بمرض لا يمكن شفـاؤه، وأن يكون الرجل مسـؤولاً عن ديون زوجته التي تستدينهـا، وكانـت المرأة مساوية للذكر في الميراث، وكان لهـا الحق في حضانة أولادهـا إلا إذا أثبت الرجل أنهـا شـريرة، في هـذه الحالـة يحق له أن ينزلها منزلـة الإماء!!

قـانـون نسـي أن يضـع بنـداً آخـر يعـاقب الرجل الشـرير بالعبودية!!

في قانون حمورابي هذا كان للنساء الحق في أن يكن قاضيات وحـاكمـات وشـاهدات وكاتبات؛ ولهن الحق في أن ينتظمن في سلك الكهـان، في بلاد البـابليين ارتحت قليـلاً، سبـحتُ في ذكـريات دجلة والفـرات العظيم، في ذلك الزمن البعيد كـان الكل مشـغولاً بالكتـابة السومرية وصناعة المسلات البابلية، ليتنـي أعود إليها..

(1) المصدر: المرأة بين الدين والمجتمع، زيدان عبدالباقي. صفحة: 28.

ليتني أطلت الوقوف هناك لأرى ماذا بقي منها؟؟

المرأة في مملكة العبرانيين:

في طريق رحلتي اللولبية الطويلة، آليت على نفسي إلا أن أطل على ابنة العم، تلك: التي تدين باليهودية، ترى ماذا تواجه هناك من تعامل؟

وهل تليق بها تلك المعاملة؟

ما هذا؟

لماذا هي منفية وحيدة في هذه الخيمة؟

إنها في دورتها الشهرية أو إنها "إنها تعاني الحيض"، إذن هذه المرأة محرم عليها أن تُجالِسَ أو تؤاكل أحداً، أو تلمس ثوباً أو وعاءً حتى لا ينجس!!

ها هو الماء وها هو الخبز أمامها فلتأكل ولتشرب منه، حتى تخرج من حيضها!!

تباً لكم يا رجال التلمود، ماذا فعلتم بتلك السجينة، التي ليس لها ذنب إلا كونها امرأة تتبع ملتكم التي قلتم: إن من ضمنها: أنه، لا يجوز للمرأة قراءة التوراة، حفاظاً على كرامة المصلين وعدم مسهم، بالخزي والعار؟!!

جاء في سفر اللاويين، الإصحاح الخامس عشر، الفقرة 19 الذي لا يخفى على أي مطلع أن الكثير مما جاء فيه هو من عند



غير الله جل جلاله، بل هو من تأليف رجال قساة كاذبين، يقول هذا السفر: "وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دماً في لحمها، فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من مسها يكون نجساً إلى المساء، وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجساً، وكل ما تجلس عليه يكون نجساً، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء، وكل من مس متاعاً تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء، وإن كان على الفراش أو على المتاع الذي هي جالسة عليه عندما يمسه يكون نجساً إلى المساء..

وكل فراش يضطجع عليه يكون نجساً..

وكل الأمتعة التي تجلس عليها تكون نجسة..

وإذا طهرت من سيلها تحسب لنفسها سبعة أيام ثم تطهر، وفي اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فرخي حمام، وتأتي بهما إلى الكاهن إلى باب خيمة الاجتماع فيعمل الكاهن الواحد ذبيحة خطية، والآخر محرقة ويكفر عنها الكاهن أمام الرب من سيلها"[1].

وفي سفر اللاويين الإصحاح الثاني عشر: إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام، كما في أيام طمث علتها تكون نجسة..

---

(1) ديب علي حسن، المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات. صفحة: 97.

ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً في دم تطيرها، كل شيء مقدس لا تمس، وإلى المقدس لا تجي حتى تكمل أيام تطهيرها.

وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما في طمثها، ثم تقيم ستة وستين يوماً في دم تطهيرها.

المصدر الكتاب المقدس، سفر للاويين، الإصحاح في التلمود نقرأ: "الحمد لك يا رب يا مالك الدنيا يا من لم تخلقني أنثى".

"واحسرتاه لمن كانت ذريته إناثاً".

"أصلح النساء مشعوذات".

"النساء أرواحهن تافهة".

"النساء لسن حكيمات ولا يُعتمد عليهن".

"نزلت إلى العالم عشرة أنصبة من الثرثرة أخذت النساء منها تسعاً".

"لا توجد امرأة إلا للجمال، لا توجد امرأة إلا لإنجاب الأولاد".

كل من يمشي وراء مشورة امرأة، يسقط في جهنم"[1].

ومن أسفار العهد القديم: (سفر الجامعة بن داود) "وجهت قلبي لأتعلم وأبحث لعلي أجد الحكمة وحقيقة الأمور، وأعرف نفاق الجهلة وجنون الحمقى فوجدت أن المرأة أمرُ من الموت، فقلبها

---

(1) المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات صفحة: 99، ديب علي حسن.



مصيدة وأحبولة، ويداها أغلال، من كان صالحاً أمام الله ينجو منها، أما الخاطئ فإنها تقتنصه"!!

على كل حال، وبعد كل السخف الذي قرأناه في كتبهم الدينية التي كتبوها بأيديهم، وعن العار الذي يخافونه ولا يمس إلا الذين قرروه، هل أقول للمرأة اليهودية التي تعيش اليوم بشراك؟

فقد قرأنا في الصحف مؤخراً، أن البروفسور سبربر دانييل الحاخام الأرثوذكسي المتشدد ورئيس المجلس الاستشاري العام الذي يقدم المشورة لوزارة التربية والتعليم فيما يتعلق بالتعليم الديني والقومي في الكيان الذي أقامه اليهود في الأرض التي احتلت من فلسطين أعلن إنه: مسموح للنساء ممارسة عملية التسامي على درجة "عاليا"، أي الارتفاع إلى مستوى التوراة وحتى قراءتها!!

لقد سمحوا لها بالارتقاء إلى درجة عالية هكذا يقول الرجال، ولكن المحامية وعضو الكنيست سابقاً "شولاميت آلون" لها رأي يختلف، تقول هذه المحامية: "ليست النساء في إسرائيل سوى آلات تفقيس لصنع الجنود، إن المسؤولين الإسرائيليين ينتظرون من كل إسرائيلية أن تنجب أكبر عدد ممكن من الأطفال لكي يصبح بالإمكان إلحاقهم بالجيش فيم بعد"[1].

---

(1) ديب علي حسن، المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات. صفحة: 286.

ليس هذا فقط، بل إن علماء الاجتماع الإسرائيليين الذين هم مهتمون بقضية التوازن الديموغرافي كما يقولون:" إنه حتى يستمر تعاقب الأجيال وحتى يحافظ اليهود في العالم على العدد نفسه، فإنه يجب ألا يقل معدل خصوبة المرأة اليهودية عن (2) للمرأة في المرة الواحدة، وإلا فإن نسبة الفلسطينيين ستكون هي الأعلى والأكبر"[1].

إذن المرأة اختزلت إلى فقاسة تفقس الجنود في كل مرة، جنديين!

إنهم يخافون منها ويريدون أن تصنع الجنود لهم!!

ويريدون أن ترفه عن أولئك الجنود أيضاً، يقول هرتزل في يومياته: "سأستعمل فتياتنا الثريات كرواتب لمحاربينا الشجعان والفنانين الطموحين، والموظفين الموهوبين، يجب أن أتبع الزواج السياسي، يجب أن أقول لأصحاب المصارف الكبيرة الذين يتطلعون نحوي: أريدكم أن تزوجوا بناتكم لشباب نشطين يبشرون بمستقبل باهر، يلزمني هذا لبناء الدولة، إنه التسميد الذاتي للأمة"[2].

ولأنه تسميد للأمة فإن مشاعر هذه الأم تعد سماداً، أو لا اعتبار لها في نظر الحكومة، فهي محرومة من طفلها ليلا، فأي أم تحتضن طفلها أو تذهب إليه في غير وقت الزيارة سوف تطرد من عملها!!

(1) ديب علي حسن، المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات. صفحة: 287.

(2) ديب علي حسن. المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات.



فالأم المربية هي الكيبوتس التي تغرس فيهم التعاليم التلمودية والعدوانية ضد الآخرين وهم في هذه الحالة أبناء فلسطين.

ولأننا في أرض فلسطين، التي يركض لها الغرباء دائماً فلنقف قليلاً لنقرأ قصة رمزية ذات دلالة لعلها تكون واقعية، أو ربما اسطورة من أساطير الأولين الذين أرادوا أن يثبتوا دائماً - وإن أختلف الهدف - أن كيدهن عظيم، وهذا ما لا أشك فيه، فقد أثبته الله تعالى في كتابه الكريم حين أتت الـ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إنها قصة دليلة.

دليلة:

ويقولون إنها امرأة فلسطينية من غزة، قالوا إنها أحبت الرجل العبراني الذي كان يستعرض قوته بين قومها، ليزرع الاحترام الذي كان يفتقده قومه وليجد زوجة فلسطينية ترفع مقام القبيلة التي كانت ترضخ للحكم الفلسطيني آن ذاك، وربما أرادت تلك المرأة أن تعلن الانتصار وحسب؟!

في الحقيقة إننا حين نقرأ هذه الحكاية لابد أن نتذكر أن فيها الكثير من رائحة الأساطير الإسرائيلية، ولكني أجد فيها الكثير من كينونة المرأة الذكية التي تستخدم ذكاءها في مواقع تريدها، سواء لها أو لمجتمعها الصالح أو الطالح: كان شمشون من قضاة العبرانيين، وكان رجلاً يتمتع بقوى خارقة كما يقال وكان يجاهد كفار الروم الذين يعبدون الأصنام، يغزوهم فيقتل منهم ويسبي ويغلب لوحده، فتآمر عليه القوم للانتقام منه فمن ذا يغلبه؟

إنها، لها، "المرأة"، دليلة، امرأة شهيرة بجمالها وفتنتها و"إن كيدهن عظيم" ذهبوا إليها، قالوا لها: نريده ولك ما شئت، مضت إليه، أغرقته بفتنتها وسحرها، وعندما تأكدت من ذلك، أي أنه وقع تحت سحرها الأخاذ، سألته عن سر قوته، قال لها: لو أوثقوني بسبعة حبال مبتلة لفقدت قوتي، إنه النصر آت يا دليلة، نام مثل طفل صغير ذلك الجبار فأوثقته لكنه أفاق من نومه فقطع الحبال!!

صرخت دليلة بدلال: أتهزأ مني يا حبيبي وأنا أريد أن أمزح معك وأجرب صدقك، أيها المخادع، أنت لا تحبني!!

لا، لا، لا يا دليلة بل أنت فاتنتي، يا ويلي ويا ويلي من الفتنة ويا ويلي من الحب.. في الليلة الأخرى وبعد أن غمرته بالسحر الفاتن سألته عن السر قال: إذا أوثقوا رقبتي بسلسلة من حديد فستزول قوتي وأصبح إنساناً عادياً، ونام وعندها أوثقته دليلة بسلسلة من حديد، وعندما أفاق من نومه جذب السلسلة المرتجاة فتقطعت دون عناء!! صرخت دليلة المدللة ما بالك أيها المخادع مرة أخرى تكذب علي؟؟

لن أصدقك مرة أخرى حتى لو أقسمت.

قال لها افعلي بي ما شئت إني رهن إشارتك، سقته الخمر حتى ثمل قالت له: الآن أنا، لا أحبك!!

تذلل لها شمشون حتى لا تتركه، قالت: السر، السر قله لي؟



قال: إن أمي قد جعلتني نذراً للمحراب، وقد دخلت بي قوة لا أدري سرها، ولا قوتها، ولكنها تكمن في شعري، فإن قصصته تفرقت قوتي، ونام شمشون في أحضان دليلة الفلسطينية التي سارعت إلى شد وثاقه ومن ثم دعت القوم الذين قصوا شعر شمشون الجبار، أفاق شمشون في اليوم التالي إنساناً عادياً لا حول له ولا قوة، عندئذ قام القوم بمكافأة دليلة الداهية، وقاموا أيضاً بجدع أنف شمشون وصموا أذنيه وعموا عينيه ووضعوه في معرض للناس، ومضت الأيام والشهور وهو معروض أمام الناس يعاني، عاد شعر شمشون مع الوقت ينبت وعادت قوته مع عودة الشعر وهو صامت ينتظر الانتقام، وحانت الساعة عند اجتماعهم جميعاً في عيدهم الذي يقيمونه في معبدهم، أمسك شمشون بعامود الهيكل وصرخ بأعلى صوته: آن الأوان أيها الكفار، وأطبق الهيكل عليهم جميعا، تلك هي المرأة دليلة وسياستها الرهيبة التي لجؤوا إليها فكبلت القوة التي عجزوا عن مقاومتها، إنه المكر!![1].

في بلاد الأساطير والفلاسفة:

كنت سريعة في رحيلي نحو بلاد أفلاطون وتلميذه أرسطو الذي تحدثنا عنه قبل قليل، توقفت هناك لعلي أجد في اليوتوبيا مكاناً أمارس فيه إنسانيتي، أليست بلاد اليونان هي بلاد الشعراء؟

(1) معجم أعلام النساء، زينب العاملي، صفحة: 311.

أليست بلاد الفلاسفة الذين ملؤوا الدنيا بفلسفة الحضارة التي قالوا إنها حضارة لا تغيب عنها شمس الحضارة؟

كنت أحب الشعر، ومازلت أحبه، لهذا قلت لنفسي: هيا يا سارة إنها فرصتك لتحضري مجلس الشاعر "هزيود" ذلك الشاعر النكد الذي أخرج لنا الأساطير العجيبة الغريبة عن زواج الأرض بالسماء، وعن ولد السماء كرونس الذي غضب على أبيه وأخذ مكانه وخوفا من أبنائه أخذ يبتلعهم واحداً واحداً، الأمر الذي دعى زوجته إلى أن تخفي ابنه زيوس الذي شب وخلع أباه، ثم أجبره على إخراج الأبناء الذي كان الوالد السماء، قد ابتلعهم فعادوا جبابرة يملؤون الأرض قوة واقتدارا!![1].

جلست غير بعيد عنه استندت على أسطوانة حجرية ووضعت يدي على حجري، معللة النفس بسماع أجمل الأشعار، فقد سمعت بأنه غير الأساطير التي أخرجها قد كتب شعراً جميلاً عن حياة الفلاحين؛ وذلك في "الأعمال والأيام" ولكني خفت على نفسي، لقد رأيت الرجل محملاً بالكراهية لي كامرأة، كان يظن حواء هي مصدر الشر والشقاء، لقد قال لسامعيه دون أن يرف له جفن: إن الرجال قد عاشوا مدة طويلة أحراراً بغير مرض ولا تعب حتى ظهرت "باندورا" -وهي حواء أو المرأة الأولى في الأساطير اليونانية- ويقول إن زيوس لما غضب على بروميثيوس حين سرق النار من السماء أمر الآلهة أن تخلق المرأة لتكون هدية للرجل، فأمر

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثالث، الكتاب الأول، صفحة: 25 .



إله الحدادة القبيح "هيفاستوس" أن يمزج من فوره التراب بالماء وأن يهب المزيج صوت الرجل وقوته وأن تعطيها "أفروديت" الجميلة شيئاً من جمالها وشيئاً من رشاقتها والقلق الذي يتلف الأعضاء، وعلمتها "أثينا" كيف تنسج القماش المتين وأعمال المنزل، وأمر الرسول هرمس أن يمنحها عقلاً كعقل الكلاب وأخلاقاً كلها ختل ودهاء، ووضع رسول الآلهة في جوفها صوتاً جذاباً، كلهم أطاعوا زيوس؛ ولهذا سميت في اللغة اليونانية بجامعة العطايا أو الحاصلة على جميع الهبات"!![1].

لقد كره هذا الشاعر مثله مثل بقية قومه الإثينيين أمنا حواء غفر الله لها "التي يقول عنها في كتابيه "الأعمال والأيام" و"أنساب الآلهه" : إنها جلبت معها الشرور وجلبت المرض وآفات الفقر والشقاء.

هذا الهزيود يصر على أن ظهور "باندورا" هو سبب انحطاط الجنس البشري، وهو العقاب الأزلي للرجل بالرغم من أنها لسوء الطالع كما يقول ضرورة للإنجاب!

يظل هزيود يؤمن بالأساطير التي يكتبها ويقرؤها مجتمعه كأنها شيء مقدس وليست أساطير هم كتبوها ملاحم ما زال الناس يقرؤونها كأنها الحلم الذي لا يفيق إلا والدهشة تحلق به في وديان اللامعقول، يظل هزيود يؤمن بأن المرأة أصل الشرور وأمها، تقول

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثالث. صفحة: 188.

الأسطورة التي يؤمن بها ومعاصروه: إن زيوس يقدم باندورا إلى إميثيوس الذي حذره بروميثيوس من قبول هدايا الآلهة، ولكنه بالرغم من هذا التحذير يشعر بأنه لا حرج عليه من أن يخضع لجمال هذه المرأة، وكان بروميثيوس قد ترك مع إميثيوس صندوقاً خفياً عجيباً وأوصاه ألا يفتحه بأي حال من الأحوال، وكانت معه بندورا التي غلب عليها حب الاستطلاع ففتحت الصندوق، فما الذي حدث؟

لقد طارت من الصندوق عشرة الآف شر، أخذت تنغص على الناس حياتهم، هذا الشاعر لم يخجل مني كأمرأة أشاركه الحياة وهو ينصح الرجل الفلاح الذي بقيَ يستمع إليه بأن يحصل أولاً على المنزل ثم على المرأة، التي هي ضرورة أيضاً لأعمال المنزل، ثم على الثور!

لصدمتي في هزيود لم أبق طويلاً كي أستمع لأشعار هذا الذي قال إن أمي صنعها إله الحدادة القبيح!

سبحان الله ما بال هؤلاء القبحاء يكرهون المرأة؟

هل هي سياسة الخوف؟

هذا ما سوف نظل نفكر به على مر العصور، فالقبيحون والمرضى النفسيون هم الذين يعانون من وجود امرأة إلى جانبهم، أليس كذلك؟! لعلني لم أبتعد من خلال هذه العاصفة اللولبية عن عين الحقيقة إذ إني أريدها؟



سوف أحكي حكاية صغيرة، تذكرتها الآن، عن القبح بعيداً عن آلهتهم التي إبتدعوها، لقد عاش في العصر البعيد أي في حوالي العام 550 ق ب شاعر قبيح هو هبوناكس وهو كما يورد ول ديورانت في قصة الحضارة: من الشعراء العظيمي القدر والعظيمي القبح قصائد قبيحة في موضوعها، غامضة في ألفاظها، لاذعة في فكاهتها، دقيقة في وزنها الشعري، جعلت بلاد اليونان كلها تتحدث عنه، وإفسوس كلها تحقد عليه، ذلك الرجل كان قصير القامة، نحيل الجسم، أعرج مشوها، غاية في القبح، رسم له المثالان بوبالوس وأثنيس رسما مضحكاً فهاجمهما في شعره هجاء مقذعا بلغ من القذارة حدا جعله أحد وأقسى من حجارتهم وأبقى على مدى الدهر، هذا الشاعر القبيح نسمعه يقول في بعض ما بقي من إحدى قصائده: "إن المرأة تسبب السعادة للرجل في يومين/ أحدهما يوم يتزوجها، والثاني يوم يدفنها"[1] لن أبقى مع هزيود وكتابه الذي ملأه بالأساطير التي ألفها، ولكني رحت أقلب طويلاً في"أوديسة" "هوميروس" الذي يقولون إنه كان أقل عداء من هزيود للمرأة وتوقفت عند بطلتين من أبطال "الأوديسة"، إنهما "هيلين" و"كلوتو منسترا" هاتان البطلتان قال عنهما هوميروس: إنهما لطختا جنسهما!!

بل أكد: أن هاتين المرأتين لطختا كل امرأة شريفة إلى أبد الدهر!

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثالث، الكتاب الأول، صفحة: 266.

سلام عليك يا حواء كم ظلموا جنسك، وكم أسهبوا في الظلم، فهذا الهوميروس يحمل المرأة ما ليس لها من أوزار فلو أخطأ رجل، أي رجل فسيكون الخطأ فرديا يتحمله صاحبه أما أن يكون الخطأ من امرأة فالويل لكل النساء، ويا نساء العالم لا عزاء إلا بالعمل بالحد من ظهور هميروسات آخرين يظلمون ولا يتقون، ولكن هل هذا متاح؟

السؤال أوجهه للمرأة ذاتها؟

أفلاطون:

أماه، هل أرحلُ عن تلك البلاد المليئة بالجبال وبالفلاسفة الذين يشبهون الجبال؟

لا، لماذا؟

تطلبين مني الدخول في جمهورية أفلاطون؟

سمعا وطاعة أيتها الغالية، ليس لي إلا أن أرى وأسمع ماذا فعل أفلاطون في اليوتوبيا المتخيلة؟

هل كان ديموقراطيا مع الكل؟

هل قبل المرأة بخصوصيتها الأنثوية؟ لنرَ.

آه هاهو اليوتوبي أفلاطون يكرمها بإدخالها إلى طبقة الحراس، حسنا ذلك طيب ولكنه، ويا للأسف، يكره الأنوثة فيها، يحتقر تلك الأنوثة، فهو يطلب منها في محاوراته وقوانينه بدون أن



يخجل أو أن يرف له جفن أن تتخلى عن كل ما يمت للأنوثة بصلة، إذ يقول: "إن عليها أن تسير أثناء التمرينات الرياضية والعسكرية في الشارع عارية تماما مثلما يفعل الرجل، وحذار أيها الشبان من الحراس الرجال، فهي كثيرة اللجاجة، غير متعاونة تعتني بنفسها كثيرا، كثيرة التباهي، مجدفة، سهلة الانقياد، هشة أمام المرض، هشة أمام الحب، كما أنها عرضة للإفراط في الحزن!! ويعوزها معرفة ما يصلح لها!! وهي أدنى في العقل"![1].

هل بقي المزيد يا أفلاطون؟

نعم هناك المزيد، يقول: "إن النساء لا يصلحن كنماذج للشباب أكثر من المجانين والحرفيين والعبيد"![2].

مساكين أولئك الحرفيون والعبيد ساواهم بي أنا ابنتك يا حواء، لقد وضعني في حضيض الإنسانية، لقد كان هذا الرجل يحزنه أن أمه أنثى، إنه يعتقد أن من يعمل بيده يجب أن يسرح عقله!!

هكذا كان يفكر الرجال الذين يقودون الفكر!!

ويظل العمال الحرفيون في نظره بدرجة أقل تماما، مثل النساء اللاتي يعملن بأيديهن فإذن ليس لديهم عقل![3].

(1) سوزان مولر أوكين النساء في الفكر السياسي الغربي صفحة: 34.
(2) سوزان مولر أوكين النساء في الفكر الغربي صفحة: 35.
(3) سوزان مولر أوكين النساء في الفكر الغربي صفحة: 38.

إن أفلاطون يريد أن يلغي وجود المرأة لأنها بالنسبة له شيء بغيض، فهو يقول: إن الخلق الأصلي لم يتألف إلا من الرجال، أولئك الذين استطاعوا قهر شهواتهم أصبحوافضلاء على الأرض، وسوف يسمح لهم بالعودة إلى سعادة النجوم التي أتوا منها، أما بالنسبة لأولئك الذين فشلوا على الأرض، والجبناء والأشرار فسوف يعاقبون بأن يولدوا من جديد نساء[1].

هؤلاء النساء يستفاد منهن في كل الظروف ففي قوانينه لا يستبعدهن من الخدمة إذا كان فيه رفعة لدولته ففي نظام الخدمة العسكرية لا يستبعد النساء لو ظهرت أية علامة للاستفادة منهن في الخدمة العسكرية، يقول في هذه الحالة: فلتكن فترة خدمتها بعد أن تكون قد انتهت من رعاية أطفالها وحتى سن الخمسين في تلك الوظائف التي ترى أنها ممكنة ومناسبة لها[2].

يقول أفلاطون إن ذلك سوف يكسب المجتمع خمس سنوات من الخدمة ولن يلزمه بإنتاج نساء الأمزونات"[3].

(1) المصدر ذاته صفحة: 65.

(2) نساء الأمزونات هن نساء من المقاتلات كن يعشن في آسيا الصغرى وقبل ذلك كن يعشن في ليبيا القديمة وليس لهن أثداء فقد أزيلت منذ الصغر عن طريق الكي، وذلك حتى يستطعن الحرب و إطلاق القوس في حرية أكثر. الحمائم السود من الظلمات إلى النور ـ النساء الليبيات المحاربات وفي كتاب النساء في الفكر السياسي الغربي لسوزان مولر أوكين صفحة: 65.

(3) سوزان مولر النساء في الفكر السياسي الغربي صفحة: 38.



قوانين واستشهادات!!

لم يكن أولئك اليونانيون القدماء وحدهم من جهل المرأة وجهل عليها، فهاهو الدستور البرتغالي ينص على "وإذا كان جميع الأشخاص متساوين أمام القانون، فالنساء لا يمكنهن ذلك"

والقانون الفرنسي ماذا يقول؟

روجيه جارودي[1]:

يخرج لنا روجيه جارودي في كتابه الجميل: في سبيل ارتقاء المرأة، بنص قانون تشريعي فرنسي ينص على أن: "الأولاد والمجانين والقصر والنساء ليسوا مواطنين"!

وها هو جان جاك روسو معهم يستشهد باستحسان ومحبة بشعار "بيركليس" الذي يقول فيه: إن المرأة الصالحة ينبغي لها أن لا تتعلم أبداً!!

إذن بيركليسلن يخجل من زمنه الماضي كثيرا فالقوانين الذكورية تمارس حياتها في كل الأزمان!!

جان جاك روسو:

جان جاك روسي الفيلسوف الذي عاش في عصرنا الحاضر وصدعنا بكتاباته عن الأخلاق وعن النظرية الاجتماعية يعتقد

(1) في سبيل ارتقاء المرأة، روجيه جارودي.

باعتقاد اليونانيين فإن المرأة مزودة فقط بمواهب للجزئيات والأمور الثانوية!!

"فهي ناقصة أو عاجزة من الناحية التعليمية، وتماما هي عاجزة عن التفكير المجرد"[1].

يؤمن "جان جاك روسو" كما آمن اليونانيون من قبل بأن: "باندورا" و"كلوتومنستر" و"ليليت" وبقية النساء اللاتي اتهمن بالسحر هن المصدر الأول للشرور!

يقول روسو بكامل وعيه، اللاواعي بالإنسان كما خلقه الله "أن المرأة هي التي توقظ ذلك الجنس الذي يجلب له مشاعر الخوف والإثم معا" وهي. يعني المرأة. بقدرتها على إيقاظه، تصبح خطرا على ثقته بنفسه وعلى استقلاله وكفايته الذاتية!

يقول "جان جاك روسو" في كتابه "إميل الأعمال الكاملة"، بكامل وعيه اللاواعي أيضا: "ولأن لها قوة لا حد لها كان عقابها الإلهي هو أن تلد الأطفال بالوجع"[2].

إذن المرأة في نظره قوة لا حد لها، ولا يستطيع أن يقف في وجهها، ولا أن يلغي وجودها، ولهذا إذن كان لا بد لها من قوة معادلة تعاقبها، والعقاب هو أن تلد بالوجع"أستغفر الله، أستغفر الله الرحيم الكريم "عقاب الله في نظره هي أن تلد الأطفال

(1) النساء في الفكر السياسي الغربي، سوزان مولر ترجمة إمام عبد الفتاح إمام صفحة: 122.

(2) إميل في الأعمال الكاملة صفحة: 709.



بالوجع، تلك هي مبادئ الفيلسوف الذي انكفأ على عقبيه مثله مثل معلميه الأول، إنه لا يرى أن المرأة مكرمة من ربها بحمل الأمانة؟ أنهاتحمل الحياة بين جنبيها، تحمل الطفل الذي كانه جاك جان روسو وكل رجل من أبناء آدم وحواء التي ظن جاك أن الإله عاقبها بالوجع في الولادة!! " لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ليت هذا الجاك تمعن قليلا في ما خلقه الله وأراده.

لقد كتب هذا الفيلسوف كتاباً قال عنه إنه أفضل وأهم مؤلفاته، عرض فيه بالتفصيل كيفية التربية المثالية للنساء، أظهر فيه أبوية صلفة لا تترك للنساء حرية من التفكير السوي فهو "خطط"، لأن يمكّن إيميل من أن يكون رجلا طبيعيا، في عالم فاسد، وخطط لزوجته المقترحة في المؤلف لأن تكون امرأة تحترم وضعها فهو ينصحها: " الأمر الجوهري أن تكوني كما أرادت لك الطبيعة أن تكوني، إن المرأة تميل دائما أكثر مما ينبغي أن تكون كما يريد لها الرجال أن تكون"(1)!

يقول أيضا: إن خصائص مثل النفاق وتحمل الظلم هي خصال فطرية في المرأة بسبب وضعها الثانوي في الحياة "المرأة مخلوقة لتخضع للرجل، بل ولتتحمل ظلمه وتصبر على جوره، فإنه من المفيد لها أن يكون لها أهلية فطرية للأنس واللطف لكي تتحمل هذه المعاملة"(2)!

---

(1) النساء في الفكر السياسي، سوزان مولر أوكين صفحة: 151.
(2) النساء في الفكر الغربي، سوزان مولر: 39 إيميل صفحة: 734.

في هذا المؤلف يزعم روسو أيضاً أنه يطور في "إيميل" تلك الخصائص الفطرية التي يعيق المجتمع والحضارة عادة نموها عن طريق ما يحتويه من نساء.!!

هو يقول إن المرأة لا يمكنها الاستدلال ولكن ينبغي عليها أن توفر للرجل المساعدة للاكتشاف: "العقل الموجود عند المرأة هو العقل العملي، الذي يمكنهن بسهولة من اكتشاف كيف يصلن إلى نتيجة معينة، لكنه لا يمكنهن من الوصول إلى النتائج نفسها"(1) ويؤكد أن "البحث عن الحقائق النظرية والمجردة من المبادئ والبدهيات في العلم، كل شيء ينطوي على تعميم للأفكار ليس داخل نطاق المرأة، فدراستها ينبغي أن تهتم بالأمور العملية، فمهمتهن تطبيق المبادئ التي يكتشفها الرجل، ويترك لهن أن يعملن الملاحظات التي تؤدي بالرجل إلى اكتشاف هذه المبادئ"(2).

سوف يظل المبدأ أن المرأة نصف المجتمع وحضن السياسة التي لا تضمحل بفكر يتغير، في صفحات أخرى، نجد روسو يقول:" أنا أكرر أن المرأة إذا سمحت ظروفها، سوف تُبدي نماذج عالية من عظمة الروح، وحب الفضيلة، وبأعداد غفيرة أكثر مما فعل الرجال، إذا لم يذهب ظلمنا بحريتهن بكل الفرص التي يمكن أن يظهرن فيها في أعين العالم"(3).

(1) سوزان مولر أوكين صفحة: 154.
(2) إيميل صفحة: 736.
(3) سوزان موللر أوكين، النساء في الفكر السياسي الغربي، صفحة: 153.

الكتابة): "أما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله، إذ لا أرى شيئا أضر منه بهن، فإنهن لما كن مجبولات على الغدر كان حصولهن على هذه الملكة من أعظم وسائل الشر والفساد، وأما الكتابة فأول ما تقدر المرأة على تأليف الكلام، فإنه يكون رسالة إلى زيد ورقعة إلى عمرو وبيتا من الشعر إلى عزب وشيئا آخر إلى رجل آخر؛ فمثل النساء والكتب والكتابة كمثل شرير سفيه تهدي إليه سيفا أو سكير تعطيه زجاجة خمر، فاللبيب من الرجال من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى، فهو أصلح لها وأنفع"[1]!

ذلك الرجل كان اسمه خير الدين!

لا خير في هذا الرجل للمرأة، ولا للكتابة.

استراحة على حافة الحبر:

لا تبكي يا أمي، لا تبكي أيتها القارئة الموغلة في القراءة، لا تبكي فما زال هناك المزيد من الذين غرسوا الثقافة الأحادية هنا، وهناك الكثير الكثير ولكني لن أسترسل، ذلك لأني لم آتِ كي أبحث عن الأخشاب المسوسة أو الأشواك التي زرعت في طريقي، بل إني أتيت أبحث عن ثلج أبيض يأتي ذات يوم فيلوِّن الأرض بلون البياض، إني أراه يتكاثف في داخلي فيكون بحيراته الزرقاء، ثم يتلوّن بلون دمي الذي يخافونه.

وإن يسفحوه،

(1) عبد الله الغذامي المرأة واللغة. صفحة: 111.



سوف يمر حروفاً لولبية،

إلى كهوفهم التي

يخشون أن يدخلها أحد،

ها إني أراه

يحلق، لونه الحرف

وقامته أبجدية

ها إني أراه:

ريشته ثرية

طائرا يطير في سماء الثقافة،

رائحته تحفر في الوجدان

مسافة وراء المسافة،

صديق أزرق رقيق،

يبعث البركان من عقاله،

في جداله: تتساقط

النسور والغربان

وإن همُ هموا باعتقاله

أغرقهم الحبر بالطوفان.

ابن رشد:

أوغلت في رحلتي اللولبيـة أبحث عن البيـاض في الملمـوس والمحسـوس، أوغلت في مسـافـاتي فوجدته مدسوسا بين ثنايا الحقائق المجردة مثل سيف مجرد على رقاب الأكاذيب.

إن الحقـائق أبدا لا تغيب، فدائما بعد طول انتظار تشرق الشـمس ويهبط على الأرض السـلام، وفي لحظة سـلام تقفـز الحقيقة مثل حمامة بيضاء. توقفت قليلا هناك: في الأندلس التي كانت من الأماكن التي أشرقت بفكر الأجداد، وقفتُ لأقرأ لحظات في فكر شعاعي اللون، كان ضد الاستبداد وضد الاستعباد يقول فيلسوف قرطبة "ابن رشد" في كتابه "الضروري في السياسة" عن النساء: "وأما اشتراكهن في صناعة الحرب وغيرها فذلك بين من حالة ساكني البراري وأهل الثغور، ومثل هذا ما جُبلت عليه بعض النساء من الذكاء ومن الاستعداد فلا يمتنع أن يكون لذلك بينهن حكيمات أو صاحبات رئاسة[1].

هذا الرجل لم يتوقف عند ذلك فقط بل كان ينظر إلى المرأة نظرة أكثر واقعية، نظرة مقدرة لقدراتها، يقول: "إنه لا يمكن للمجتمع الإسلامي أن يرقى إلا إذا أُطلق جناحا المرأة وفُكت القيود التي تضغط على حريتها، والتي أتلفت مواهبها العظيمة، وحدت من قدرتها العقلية التي وهبها الله تعالى إياها"[2].

---

(1) الضروري في السياسة ابن رشد.

(2) التفكير الفلسفي الإسلامي صفحة: 252 إنصاف رمضان.



ابن رشـد لم يكن ميكيـافللـي التوجـه أو الميول وهذا ربمـا كـان سـببـا من أسـباب نكبتـه فهو يعتبـر العدل ركناً أسـاسـيـاً في السلطة والظلم هلاك ودمـار، ويعتبـر أن العـدل هو ثمرة المعـرفـة، وأن الظلم ثمـرة الجهل، ويعـرض في كتابه الضـروري في السـيـاسـة أن المسـتبـد يتولى السلطة ولكنه يولد الغضـب: "لذلك تسعى الجـمـاعـة الغـاضـبـة إلى إخـراجـه -المسـتبـد- من مـدينتهم فيضطر هـو إلى اسـتعـبـادهم والاسـتيلاء على عتـادهم وأسلحتهم فيصيـر حال الجماعـة معه كـمـا يقـول المثل (كالمستجيـر من الرمـضـاء بالنار) وذلك أن الجـمـاعـة إنمـا فـرت من الاسـتعـبـاد بتسليمهـا الـرئاسـة إليـه فإذا هي تقع باستعـبـاد أكثـر قسـوة، وهـذه الأعـمـال هـي جـميعـاً من أعـمـال رئاسـة وحـدانيـة التسلط، وهـي شيء بين في أهل زماننا هذا ليس بـالقول فحسب بل بالحس والمشـاهـدة" وبالمشـاهـدة نرى من ظلم واسـتـبـد ونـرى من استُبعـد قـبل عصـر ابن رشـد وبعده وإلـى أن يرث الله الأرض ومن عليها(1).

(1) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المولود في قرطبة، كان ابن رشد فيلسوفاً كثير المطالعة والتأليف، وهو فيلسوف أجاد فهم أرسطو، قام بتحليل وشرح كتبه وقد كان قاضي قضاة قرطبة، يقال إن لنكبته أكثر من سبب منها: أن ابن رشد كان على علاقة طيبة بأخي المنصور أبو يوسف الخليفة الذي كان يخشى أن يجد في أخيه منافساً على العرش، مخاطبته للخليفة بدون تكلف، تلقيب ابن رشد للخليفة بملك البربر وهذه التهمة نفاها وقال: إن النساخ هم الذين حرفوها وقد كانت «ملك البرّين»، المنافسة القائمة بين الفلاسفة وعلماء الدين التي بلغت أوجها في الأندلس الذين كانوا يرمون على الفلسفة تهمة الكفر والزندقة وتلك تهمة أوغروا بها صدر الخليفة وهيجوا عليه العامة وهذا الذي دعا الخليفة الذي كان بحاجة إلى رضا الشعب أن يستغله في إرضاء شعبه لمؤازرته في حربه مع ألفونسو التاسع ملك قشتالة، لقد أوذي هذا العالم في ذاته فنفي إلى قرية يهودية تقع جنوب قرطبة بخمسين كيلو مترا وأمروا بإحراق كتبه!!.

شغفت بالاقتدار الذي يتحدث عن نفسه وبحثت عنه لا أمل فوجدته في كثير من زوايا التاريخ تسرق منه التفاصيل كثيرا كي لا تبوح بينابيع قد تغسل تراكمات تسد مسامات الحقائق ولكن في لحظة من الزمن تنبثق الينابيع جارفة الصخور منادية للبذور لمعانقة السماء.

شغف:

شغف جارية أتت من الصفوف الخلفية لتدفع أبنها الصغير الذي لم يكن له من العمر سوى 13 سنة للخلافة، إنها أم الخليفة المقتدر، وحينما تم لها ذلك ورأت أن هناك من يعارض، بحجة صغر الخليفة المقتدر، انقضت مثل الصقر على الفراخ والفرخ في هذه الحالة كان القاضي أحمد بن يعقوب الذي لم يعترف بالمقتدر وأصر بصفته السلطة الدينية على أن الطفل ليس مؤهلا لأن يصبح خليفة، فصفته بدون رحمة مثلها مثل ملك يخشى على ملكه[1] لقد أدارت أم المقتدر شؤون الدولة باقتدار وحنكة فقد عينت من وراء الستار من رأت فيه الحنكة بغض النظر عن جنسه أو لونه، لقد ولت هذه المرأة امرأة أخرى اسمها تومال.

تومال:

تومال امرأة أصبحت مسؤولة عن المظالم في عهد المقتدر وهو منصب يعادل الآن وزارة العدل، كانت هذه المرأة المعينة من قبل

(1) السلطانات المنسيات نساء رئيسات دولة في الإسلام، فاطمة المرنيسي صفحة: 76.



امـرأة أخـرى تـرأس القـضـاة الذين تذمـروا واسـتنكروا فـي مـحـاولـة لـرفـض وجود امـرأة تـرأسـهم، ولكن رغـم المقـاومـة الظـاهـرة تذكـروا مـا آل إليه مصير القاضي أحمد بن يعقوب، عند ذاك تأكدوا أن المرأة ليس لديهـا أي نيـة للتخلي عن قـرارهـا الذي آمنت بـه واتخـذته عن قناعـة، لقـد آمنت المرأة الذكيـة أن المرأة هـي أقـرب للعدل، ففـعلت الذي هو أقـرب لـرضـا شـعـبـهـا، وهـذا مـا ثبت فعـلا، لا توقعـا، فـقـد أنهت الرشـوة المتفشيـة وخفـضت مـصـاريف العدالة، ولهذا لم يعد النـاس يدفـعـون إلا ثـمن الورق الذي يسـتـخـدمـونه فـي قـضـايـاهـم، لـم يعـد الفـقـراء يدفعـون لصغـار الموظفين الذين ينتـمـون لكبـار موظفي الدولة. وهكذا أيها التاريخ، يكبر الكبار حتى ولو كانوا جواري[1].

المرأة الحديدية:

اعلم أن هنـاك من قفـزت إلى الحكم، وكـانت مع القسـاة والطغـاة تفـعل كمـا يفـعلون وتقـول مثلمـا يقولون، تقـفـز إلـى تلك السـاحـة التي أتمنـى دائمـا أن لا تكبـر، مـارجـريت تـاتشـر أول رئيـسـة للوزراء البـريطـانيـين تلك المرأة ابنة البـقـال، الحـديدية التي عـدت وهـذه حقيقـة لا جدال فيهـا من أنجح الوزراءالبريطانيين بعد نجاحها في ترؤس حـزب المحـافظين فـي عـام 1975 ثم تغلبـهـا عـلى السـيـاسـي البـارع جـيـمس كـالاهـان رئيس حـزب العـمـال مـتخطيـة بذلك زعيم حزبهـا السـابق المعروف بقدرته وبراعته على المناورة الحـزبيـة إدوارد هيث، هـذه المرأة التـي وصـفتهـا الصـحـافـة البـريطـانيـة بـ "أقل نسـاء

(1) السلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي صفحة: 75.

بريطانيا شعبية" كانت امرأة قوية ولكنها أيضا كانت من الزعماء القساة، هذه المرأة توجها، حزبها المحافظ، في مؤتمره الذي عقده في 1975 في بلاكبول: إمبراطورة على الحزب إلى أن أسقطت بسبب أزمة حليب المدارس والحصص التي كانت تمنح للطلبة مجانا ومنعتها، لقد كانت هذه المرأة ضد التوسع في المنح الدراسية للطلبة في الجامعات وضد العواطف التي يقولون إن المرأة لا تستطيع الفكاك منها!!

هذه المرأة فازت بثلاث مرات في الانتخابات وكانت تتسم بالفردية أثناء حكمها الذي استمر أحد عشر عاماً تخللته حرب الفوكلاند وحرب الخليج الأولى التي كان لها دور نشط فيها.

وبعد سقوطها في الانتخابات التي ما كانت تخطر لها على بال وهي التي أنعمت عليها الملكة اليزابث الثانية بعد ذلك بلقب بارونة هل نقول أهلا بالعواطف التي تمنح الحليب؟

نعم نقولها، فالسياسة بدون خبز ولا حليب تصبح سجنا كئيبا، لقد سقطت المرأة التي لم تهتم بالعواطف لأنها أسقطت ركنا من أركان السياسة فالعواطف ركن من أركان التوازن، فإذا سقط هذا الركن أصبح البنيان معرضا للسقوط وإن كان حديدا فهو يصدأ، لقد بقي الضلع الحديدي في العراء فسقط، لقد اختار الشعب أن يزيح الحديد عن كاهله لأن الحديد لا يحكم وإن كان على صورة الأم(1).

(1) المرأة بين الدين والمجتمع، دكتور زيدان عبد الباقي، صفحة: 480.



اليزابث بنت هنري الثامن:

بلاد الإنجليـز التي عـرفت ببـرودة المشـاعـر سـبق ورزئت أو رزقت، يختلف المنظر باختلاف الزاوية التي ننظر منها إليها، بامرأة أخرى اتسمت بالقسوة والصلابة الصخرية التي لا تفتتها العواطف الجياشة:

إنهـا: الملكة إليـزابث ابنة هنـري الثـامن[1] ولدت سنة 1533م وتوفيت 1603م.

لقـد اعتنقت إليـزابث المذهب البـروسـتـانتي الذي دافـعت عنه بشـراسـة منقطعة النظيـر بل إنها أبطلت الصلوات الكاثوليكية من كنيسـتهـا التي اتبعـتهـا، ولقبت والية على الكنيسـة التي أصبـحت بروتسـتـانتية، هذه الملكة سجنت ابنة عمـهـا مـاري سـتيـوارت ملكة سكوتـلاندا ثمـاني عشـرة سنة ولم تفلح عـاطفـة القـرابة في إذابة جـبال الجليـد التي ظلت مثل سكاكين الفـولاذ التي ظلت لا تصـدأ أبدا، ولم تـكتف تلك المرأة بذلك بل حـرضت على عـقـابهـا والحكم عليـهـا من الكنيسـة في سكوتلاندا والتـي سـيطر فـيـهـا الحـزب البـروتسـتـانتي، لقد اضطرت مـاري ستيوارت إلى اللجوء لابنة العم، ولكن هذه لم تكن عند حسن الظن، بل إنهـا رغم توسـلات الملكة السجينة أصرت على تصفيتها بعد تلك السنين، أصرت بعـاطفة لا تلين!!

---

(1) ابنة بائع الخضار، المرأة الحديدية، جون كامبل.

هل نعود إلى تعليمات نيقولا ميكيافللي؟

نعم نعود، لقد عملت هذه الملكة بتعليماته، لقد عملت هذه المرأة الحديدية على تصفية الخصوم ثلاثين سنة دون أن تخضع لخفقات قلب، أو تأنيب ضمير، لقد جمعت حولها الأتباع الذين رأت في وجودهم فائدة لها إلى حين!!

هذه الملكة لم تكتف بخنق عشرات من فلاحي يوركشاير بموجب النظام الحربي الذي لجأت له، ولكنها خنقت حتى الحب الذي لم يضف لها مصلحة!!

في عصر إليزابث ابنة هنري الثامن الذي امتلأ بالحروب والمؤامرات، بدأ عصر "بريطانيا العظمى"!

لقد أعلنت اليزابث ابنة هنري الثامن لسفير "هنري الرابع" ملك فرنسا، أن ملك اسكوتلاندا جيمس الاول سيخلفها في المُلك ليصبح ملكا لبريطانيا العظمى بعد انضمام ايرلاندا.

إذن هي أول من وحد تلك النواحي المتقاتلة، لقد استخدمت كل الوسائل لكي تصل إلى هدفها الذي وصلت إليه رغم صرخات ماري ستيوارت السجينة التي كتبت لها تقول: "هل السجون والقبور لمثل ماري ستيوارت حتى يحكم بها مجلسك؟

وتساءلت: وعلى أي ذنب بنوا حكمهم ووافقتهم عليه؟

هل أساءك أن معتقدي يخالف معتقدك؟



إني لست ابنة كنيستك!! أوتعدين هذا ذنباً سياسياً حتى انقضضت علي من أجله منتقمة متشفية حين سلمت نفسي إليك.

وتستمر في رسالتها الطويلة إلى أن تقول: إن اليزابث لم تعرف بعد أي عظمة ضمها صدر ماري ستيوارت، سأتحمل الظلم بنفس رضية دون أن أتفوه بكلمة واحدة مكتفية بأن لي ربا ينصف المظلوم" وأوصتها بالعدل والسلام الذي لم يستتب إلا على يدي ابنها جيمس الأول، أعني ابن ماري ستيوارت الذي توحدت تحت يديه بصورة نهائية مملكتا سكوتلاندا وإنجلترا لتصبح بريطانيا العظمى[1].

(هنري الثامن هذا كان قد أصدر قانونا يحرم على المرأة الإنجليزية قراءة[2] "الكتاب المقدس")!!

مقطع عرضي "لهذا الملك مع كنيسته التي يرأسها وأسرته ومجتمعه الذي يعيش فيه مواقف غاية في القسوة والرعونة، فقد عزل زوجته الملكة كاترين وتزوج آن بولين التي طالها أكثر، فقد اتهمها بالخيانة وحكم عليها بالإعدام، أيضاً يقول ول ديورانت إن الأصل الداخلي لفساده هو ما تعرضت له غرادته من إحباط متكرر في الحب والأبوة، فقد خاب أمله طويلا في الحصول على ابن وصد بطريقة خادعة في طلبه المعقول في إعلان بطلان زواجه الأول[3].

---

(1) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور من تأليف زينب بنت علي بن حسين فواز العاملي الصفحات 79 و751.

(2) الأمير صفحة 149.

(3) قصة الحضارة المجلد الثالث عشر صفحة: 144.

هنري الثامن في نظرته هذه ليس بدعا في نظرته للمرأة، ولكن هذا الرجل قد يكون مؤمنا بأقوال رسولهم البتولي[1] "بولس" في رسالته الأولى إلى أهل كورنتسفي الإصحاح السابع حيث قال: "حسن للرجل أن لا يمس امرأة" و"أريد أن يكون جميع الناس كما أنا "ويقول بولس أيضا لرجل منفصل عن امرأته " أنت منفصل عن امرأة، فلا تطلب امرأة"!!

سبحان الله، هم يرفضون الفطرة السوية!!

هذه الفطرة السوية كيف ترفض، كيف؟

تأتي هذه الفطرة وكلنا نرغب بها، نحبها، إنسان يختلف لا اعتراض على الاختلاف، ولكن الاعتراض لماذا هذه الكراهية للمرأة؟

المرأة البلسم التي جعلها الله سكنا وحضنا، على أية حال سوف تظل المرأة الأم والحضن الذي يحتوي حتى العصاة إلى أن يرعووا .. ولن يرعووا إلا بسلطان وسلطان العلم والصبر أقوى، ونعود إلى القوانين في الشرائع التي يضعونها، قوانين بريطانيا "العظمى" هذه القوانين تجعلني دائما لا أستطيع أن أكظم الغيظ الذي أمرني ربي الكريم أن "أكظمه"، فليعفُ عني ربي وليرحمني وليرحم عباده الفلسطينيين الذين وعد البريطاني بلفور بمنح وطنهم للغير، وأصدر بذلك قانونا يمنح بموجبه وطنهم لليهود الذين كانوا يعيشون في أنحاء العالم!

(1) البتولية تعني الامتناع عن الزواج.



ويا لها من رجولة من بلفور!! هل يغتاظ الرجال مثلي؟!!

مقارنة:

للمـرأة حظ في الظلم كمـا رأينا ولا مـجـال لإنكاره، فقـد خلق الإنسان ظلوما جهولا، إلا من رحم ربي سبحانه ذو الجلال والرحمة ولكن ظل الرجل دائما يتفوق عليها في الظلم، ربما لميل المرأة نحو عـاطفـة الأمـومـة وربما بحكم وجـوده فـي الحكم أكـثـر: أليس هو الزاعم بأنه فاق المرأة عبر القرون؟

في كل الأحـوال نـبـارك له السـبق فـي الحكم وفي طوله أيضـاً وإن كنا نذكره بأنه: قد أتيح له في الحقيقة التعليم أسبق، وأتيح له المجـال أكـثـر فـي المدارس وفي الجـامـعـات وفي الطرقـات التي لم يغضوا الطرف بها عن أي سقطة، ولو في حفرة هم حفـروها لها مع سبق الإصرار والترصد للغزالة التي يريدونها غزالة وحسب.

أنا هنا، وأنا أظهرُ، مـا لـلمـرأة ومـا للرجل من صـفـات التقـارب في بعض الأعـمـال السـيئـة والحسنة لا أتفق مع من يقـولون إننا لا نولد بنات أو صـبـيـان وإنما هم يجـعلون منا هـكذا، أبدا، أبدا، أنا لا أتفق، نحن نولد بنات، لنا خصائص جميلة لا نخجل منها بل نفـخر بها، لنا عاطفة الأمومة، ولنا جمال الشكل، ولنا رقة الطبع، ولنا قوة التـحـمل، نحن من يتـحـمل الحـمل والأمـانة، الجنين أمـانـة في أحشـائنا، نحن من يتحمل الولادة ونحن من تحـمل الألم، ونحن من يتـحمل العـمل بدون ضـجـيج ونقـول عندمـا تشـتد الكروب: إن الله

سيكون معنا ونتساءل دائماً: لماذا يكون علينا دائماً أن نفرط بما هو لنا؟!

لنا حقوق شرعها الله كثيرة وطيبة، ومطلوب منا أن ننساها!!

وهنا لا ننسى أن التاريخ لا يشفع للمفرطين، فرطت المرأة في حقها مثلما فرط الرجل في حق أمته، فكانت الهزائم، والهزيمة النفسية أدهى وأمر، هزمت القبيلة في بعض الحروب فعاد رجالها، إلى من؟

لقد عادوا إلى حضن الأمهات وإلى الزوجات ولأنهم مهزومون أولئك الرجال، فلا بد أن يكون هناك من يدفع الثمن، إنها الزوجة والأم، يمارس عليها الانتقام أو يجرب عليها القوة التي يشتهيها ولا يستطيع ممارستها على غيرها، ولأنها تعلم أنه مهزوم مأزوم فلا بد من التحمل!.

تحملت المرأة كثيراً من العنت والتهميش والتهويش ولكنها صبرت وظلت في صحراء العطش مثل شجرة الصبار تروي من يضل الطريق بأجزائها الخضراء.

بعض النساء يهربن من هذا المصير لأنهن لا يعشقن أن يصبحن شجرة صبار فيصبحن حشائش تدوسها الأقدام!!

عودة:

بعدنا عن الشرق وهو العريق، أليس كذلك؟



لا بأس، نعـود، نحن كنا من يعـاني العنت، ويا طول المعـاناة ويا لنهـايتهـا التـي لم تأتِ، حتى على الرغم من وجود قطرات من مطر تهبط هناك وبحيرات متناهيـة في الصغر تتكون هنا، "المرأة واللغة" هذا الكتاب تكلم عن اسـتبـعـاد النسـاء والخـوف منهن لغـويا، لقـد سـرقـوا منهـا حـتـى تاء التـأنيث إذا أرادت الدخـول فـي مملكة الفصاحة!!

إنها زوج فـلان أو حرمـه، في الشرق وفي الغـرب لا تكون زوجة إلا إذا تنازلت عن اسمها الأصلي، إنها مس جورج أو مس بوش!

يقـول ذلك الكتـاب: "إن الحـالة العـربيـة حـالة فصاحـة فحسب أما الحـالة الغربية فهي حالة إلغاء تام من جهة وإدماج تـام من جهة ثانية وفيها يكون التذكير في المضمر وفي المعلن معا.

وفي اللغـة الإنجليـزية ليس للمـرأة من وجـود إلا داخل مـصطلح الفحولة ولننظر في هذه الكلمات:

	wo man
Man	hu man
	Man kind

حـيث تكون المرأة مـجـرد إضـافـة لفظيـة إلى الرجل إذ إننـا لو حـذفنـا كلمـة رجـل (man) لضـاعـت وسـائل المرأة من الوجـود في اللغة وأيضا في البشرية وأيضا في الإنسان"!

لعل أخانا من جنوب الأرض الذي تكرم على المرأة بإضافتها إلى الطفل!.

أقول لعله لم يقرأ ذلك الكتاب الذي ذكرناه آنفا وذكر فيه مؤلفه قصة كتاب خير الدين نعمان أبي الثناء الذي كان يخشى تعليم المرأة حتى لا يهتز عرش الفحولة، لقد أورد ذلك الكتاب أمثلة متناهية في الشفافية، ولكن هيهات لمن لا يريد أن يرى!

أيريد أن يسمع ذلك الأخ العزيز من جنوب الأرض مصادر أخرى لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها؟

هنا سندله على القرآن، هذا الرجل الشقيق الذي أتمنى أن يكون رفيقا مع أي امرأة، لو عاد هذا الرجل إلى القرآن وإلى سورة النمل التي قد يسمعها خمس مرات في صلاته لوجد العجب العجاب، ليته يتذكر، ليته يعود ليسمع شهادة من الله، نور السماوات والأرض، إنه لو يعود لسمع ورأى بأن المرأة مارست السياسة برجاحة عقل وذكاء، إنه لو عاد لرآها تضع السالب والموجب ثم تختار الأنسب إنها الواقعية الملموسة بالحواس الشديدة الحساسية[1].

بلقيس يا حلم الليالي:

إنها ملكة سبأ "قيل إن اسمها بلقيس وهذا الاسم لم يورده القرآن، ولكن يعنينا أنها امرأة وجدت: ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ** ﴾.

(1) المرأة واللغة للدكتور عبد الله الغذامي صفحة: 22.



هذه الشهادة الكريمة نزلت قبل ألف وأربعمائة وأربعة وعشرين عاماً.

قد أتاها خطاب كريم من نبي الله سليمان ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[1] هي لا تعلم من هو سليمان ومدى قوته، ولكنها الحكمة والسياسة تتجلى في ملكة سبأ ولنسمها بلقيس كما هو وارد في كثير من القصص عن ملكة سبأ، هذه المرأة التي أحيطت برجال يريدون أن يظهروا قوتهم أمامها ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[2] هل اغترت بالقوة؟

إن الأتباع قد أظهروا لها قوة بأسهم والاعتداد بأنفسهم، هؤلاء الأتباع لم يكترثوا بقوة لم يعلموها، هؤلاء الأتباع لم يروا ما خلف تلك الرسالة، هي رأت، المرأة الحكيمة رأت أن من الحكمة معرفة من ستقابل، وفي المواقف الصعبة تظهر الحكمة من عدميتها وقد كانت المرأة الملكة امرأة حكيمة، ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[3].

أرأيتم الحصافة؟

إنها امرأة أنثى، تصرفت بمهارة وحنكة وجنبت مملكتها الحرب، لقد أرادت أن ترسل بالون اختبار، ولتنظر ماذا يفعلون مع هذا الاختبار؟

(1) سورة النمل الآية: 31.
(2) سورة النمل الآية: 33.
(3) سورة النمل الآية: 34.

إنها لم تستفز القوة التي أتت مهددة، وهي لا تعلم عنها شيئاً.

فماذا فعلت؟

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[1].

أرأيتم ذكاء الأنوثة الذي تجلى في موقف يضيع فيه الكثير؟

نعم لقد اختطف العرش بواسطة القوة الرهيبة التي لا مجال للوقوف أمامها، ولكنها قد ربحت نفسها، أسلمت لله وجنبت قريتها الفساد وجنبت كذلك أن يصبح أهلها أذلة. ﴿ **قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** ﴾[2] الآية.

إنها امرأة حذقت السياسة، فلم تشأ أن تعرض أهلها أو أهل قريتها للمجهول، بل حسبت الخسائر فوجدت أن الخسارة التي يمكن أن تتعرض لها شخصيا أقل من تعريض أهل الوطن جميعا للخسارة، أرأيت أيها الرجل كيف تعطي المرأة من ذاتها؟.

أسماء:

كانت الملكة أسماء الأكثر شهرة بين نساء زمانها وبين الحكام، كانت كريمة، وشاعرة تنظم الشعر بنفسها، ولقد كانت مع زوجها يكونان حكومة وحدة وطنية بالتعاون والتفاهم، ظل هذا الأمر حتى جاءت لحظة كالحة السواد بدلا عن عيد حج كانا ينتظرانه وهما

(1) سورة النمل الآية: 35

(2) سورة النمل الآية: 34



في طريقهما إلى مكة المكرمة، فعندما توقفت المراكب ليلا وأقيمت الخيام الملكية، تفرغت أسماء لواجباتها بين جواريها وتفرغ زوجها علي الصليحي، لحاشيته كما جرت المراسيم، "هنا ظهر حاكم زبيد الحبشي برجاله السبعين الذين وزعهم على نقاط استراتيجية ليضرب بسفه رقبة علي وكل رجاله المهمين ويحتفظ بالملكة أسماء أسيرة لديه، ثم يلتفت الحبشي سعيد إلى جنود الصليحي ليضمهم إليه باعتبارهم أحباش"[1].

أسماء التي وضعت في مخبأ سري لم يتركها وحيدة فقد وضع أمامها رأس زوجها الحبيب على عامود لتراه كلما تحركت..

بقيت أسماء سنة كاملة وهي تحاول أن تخبر ابنها أنها هناك..

واستطاعت وانتشر الخبر في صنعاء وهنا تحرك الشعب لإنقاذ الملكة والكرامة، ثلاثة آلاف فارس اصطفوا خلف ابنها المكرم والغضب يثور مثل مدافع الآر بي جي، ونجح ثلاثة آلاف من المخلصين في هزيمة عشرين ألف حبشي كانوا يدافعون عن زبيد في خلال بضع ساعات، وتقدم المكرم يركض في متاهات السجن يبحث عن أمه الملكة الحبيبة، ركض في كل الاتجاهات حتى قادته خطواته إلى المكان السري الذي وضعت فيه، هنا تقدم لها بخوذة وقناع الحرب، ووقف أمامها كأنه في الحلم، سألته: من أنت؟

قال لها: أنا أحمد بن علي، قالت في ريبة: إن هذا الاسم يحمله كثير من العرب، هنا رفع عن وجهه القناع فحيته بتحية

(1) السلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي صفحة: 242.

الملك، هنا لم تعد قدماه تحملانه فقد استوعب موت أبيه وتحرير أمه الحبيبة، إنها عوامل تهد الجبال فكيف بابن رأى أمه تحييه بتحية الملوك في غياهب السجون؟[1].

عادت الأم الملكة إلى صنعاء تحمل ابنها الحبيب المكرم الشجاع نصف مشلول، لا لم تضع المملكة، فقد تحملت الأم الشجاعة شؤون الملك وهيأت أروى ابنة عم المكرم لمساعدة زوجها، لقد كانت السلطة شأن الزوجين وليست امتيازا لأحدهما، إنه الاتحاد الذي ينتج القوة.

أروى:

وهنا نعود إلى أروى بنت أحمد الصليحي التي ولدت في خراز باليمن، ونشأت تحت رعاية أسماء بنت شهاب أم المكرَّم الصليحي أحمد بن علي، وهي ملكة عربية، تزوجها ابن عمها المكرم وعمرها سبع عشرة سنة وذلك عام 461 من الهجرة وكان زواجها رمزاً للأبهة والابتهاج، وكان مهرها إمارة عدن[2]، وأخذت منذ ذلك الحين تشرف على إدارتها وتسمي حكامها وتحصل على الضرائب منها، وعندما أصيب زوجها المكرم بمرض أعجزه عن أداء مهام الحكم كانت تملك الخبرة والقوة، ومن أجل ذلك خولها ذلك الزوج المحب الذي تربت معه تحت سلطة أمه الملكة أسماء، سلطاته والتي أدارتها باقتدار وحكمة، كانت هذه الملكة تتحجب خلال جلسات

(1) السلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي صفحة: 243.
(2) السلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي صفحة: 244.



العمل، فهي تكلم الوزراء ورجال الدولة من وراء حجابها الذي التزمته، فهي شابة جميلة وزوجها معاق، وهكذا نذرت نفسها للعمل وللإخلاص لزوج محب، إلى أن مات المكرم، لكن الانتقام ممن كان سبب مأساة العائلة الصليحية لم يمت، أروى لم تنسَ سعيد بن نجاح قاتل عمها الذي لم يزل حيا، ولبلوغ غايتها، قررت أروى أن تنقل عاصمتها من صنعاء إلى جبالة، وهي مدينة صغيرة محصنة وملتصقة بالجبال، وبدأت في تضييق الشبكة حول سعيد بن نجاح بالإكثار من التحالفات والمفاوضات وبعد سنة أي في عام 1088م سحقت جيوشها سعيد بن نجاح في ضواحي جبالة، ولم يكن ذلك بسبب تفوقها العسكري وإنما بالتفوق العقلي، فقد أغرت سعيداً بمهاجمتها بجعله يعتقد أن كل حلفائها كانوا على وشك التخلي عنها، لقد طلبت من حلفائها أن يذهبوا إلى ابن نجاح والإيحاء له بأنه في حالة مهاجمته لجبالة فإنهم لن يأتوا لمساعدتها، ووقع أبن نجاح في الفخ، وقتل سعيد، واقتيدت أم المعارك أسيرة أمام أروى عندها أمرت أروى بقطع رأس سعيد، وغرسه على عامود أمام حجرة زوجته الأسيرة تماما كما حدث لعمها وزوجة عمها ومربيتها(1). استمرت أروى تدير الحكم بمساعدة الوزراء والقواد المخلصين ورضا شعبها الذي أحبها ودعا لها في المساجد بعد خطبة الجمعة، وذلك بعد الدعاء للمستنصر الخليفة الفاطمي الذي كان راضيا عنها برضا شعبها، وكان الخطيب يختم بهذا

(1) الأعلام للزركلي والسلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي صفحة 245 ـ 246.

الدعاء: اللهم أدِم أيام الحرة الكاملة، السيدة، كافلة المؤمنين إلخ.. هذه المرأة السياسية الحكيمة استمرت تدير البلاد والعباد أربعين سنة بحجابها الذي لم تتخلّ عنه ولم يعقها، وقال عنها الزركلي في كتابه الأعلام: (أروى ملكة كفؤة إدارية لا مثيل لها) قبل أن نرحل عن أرض اليمن هنا سوف نورد حدثاً غريباً عن هذه المرأة: قيل: إن أروى تزوجت ابن عم زوجها الداعية سبأ بناء على ضغوط مورست عليها من ابن العم، وبعد تمام عقد النكاح غادر سبأ قلعة الأشياخ حيث كان يعيش ليصل إلى جبالة حيث تسكن العروس أروى، ودخل إلى قصر دار العز الذي كان قد بناه لها المكرم وَوُجه إلى البهو التي ستنضم إليه زوجته فيه، وذهبت أروى للانضمام إليه، ولكنه لم يستطع التعرف عليها لأنها تخفت بملابس جارية، وقامت بخدمته طوال الليل دون أن يمنحها أية نظرة لاقتناعه أن المرأة المنهمكة بالعمل حوله لم تكن إلا جارية تافهة، وظل مستغرقاً في انتظار الملكة، وطلع الفجر ولم تأت الملكة، ولم يكن هناك إلا الجارية المخلصة في خدمتة، عندئذ ترك القصر وعاد إلى منزله دون أن يعرف أن الجارية التي كانت أمامه لم تكن إلا الملكة شخصيا"[1]. توفيت هذه المرأة الملكة وعمرها 86 سنة وقد لقبت ببلقيس الصغرى، الملكة أروى استمرت تحكم اليمن بعد وفاة زوجها عشرين عاماً، وظل الحب لها من شعبها، وهي التي لم تقرأ تعليمات نيقولا مكيافللي في الفصل الثامن من كتابه الأمير: إن من يرد أن يعيش

(1) السلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي.



بأمــان واطمــئنان سنوات طوالاً في الحكم، يجب عليــه أن يرتكب الأعمال الفظيعة من خيانات، وخداع، وأعمال سيئة في أول حكمه، حتى يستقـر له الحكم ثم في وسـعه أن يصلح أوضـاعـه مع الله ومع الإنسـان!!

لا بارك الله فيك يا (نيقولا) ورحمك الله يا أروى، طال الزمان ولكن ظللت تحـوزين عـلى رضـا شـعـبك، وظلـت ذكـراك جـمـيلة مـثل اللآلئ المضيئة تطوق أعناق الحقيقة "رغم أنف برنارد لويس الذي قـال إنه لم يعلم أن هناك ملكة عـربيـة[1]" هذه السـيـدة الحكيـمـة ضـاع الحكم بعدها، لأن الذكور الذين أتوا بعـدهـا، لم يمـلأوا الفـراغ الذي تركته.

الزباء التي جدعوا أنوفهم كي يهزموها:

مـازلـت في أرضي وأجوائي العـربيـة الدافـئة، وهنا نـقف بحب في ربوع الزباء بنت عمـرو بن الضرب بن حسان بن أذينة السـميدع، أبوهـا عـربي وأمـهـا تقـول إنها مـن ذرية الملكة كليوبتـرا "يقـال إنهـا ادعت ذلك للمطالبة بحقها في حكم مصر"، امرأة أشبه بالأسـاطير، عربيـة أصيلة ذات شـخصيـة أخاذة، تتـحلى بقوة الشـخصيـة وبتـربية شـاسـعـة في البـذخ، لم تكن تجهل الـلاتينيـة، وكـانت تجيـد اليـونانيـة

(1) برنـارد لويس مـؤرخ يدعي الموضـوعـيـة، ولكنه في الحقـيقـة يعمـى عن الحقيـقة إذا كان الأمـر يخص الإسـلام والمسلمين إذ يقول إنـه ليس هناك ملكات في التـاريخ الإسـلامي، فالملكات تخص الأوربيـات والبيـزنطيـات، هذا الرجل أصبح هو المعلم الأسـاس للرئيس الأمريكي بوش فيمـا يخص الشؤون والحضارة الإسـلامية!

والآرامية تماما مثل إجادتها للغتها العربية، كانت الزباء أو زنوبيا كما لقبها الرومان مطلعة على التاريخ وكثيرا من العلوم ولقد كتبت تاريخ المشرق الذي كونت منه لنفسها خلاصة.

تلك المرأة السمراء البديعة الجمال التي لها الهيبة والحضور، رغم ابتسامتها التي لا تفارقها ورغم هوايتها لقراءة هوميروس وأفلاطون وكتابتها للتاريخ عن آسيا ومصر، وحبها للصيد والقنص، لم تكن امرأة حاكمة فقط، فلقد حكمت تدمر وملكت الشام وأضافت وتطلعت إلى مصر الغنية، فحكمتها واعترف الشعب المصري بحقوقها الشرعية وحملت سيدة مصر، ولم تقنع بمصر العظيمة، بل شرعت تغزو بلاداً أخرى وتهزم الجيوش حتى اتسعت مساحة ملكها اتساعا عظيما امتدت من شواطئ البسفور إلى النيل، ولولا أورليانوس الحقود الذي توجس من خطرها على إمبراطوريته وحساسية الرومانيين والغربيين ككل من أي نهوض في الشرق لكان وضع الشرق أفضل..

لقد كانت زنوبيا زوجة لأذينة ملك الملوك، وسيد آسيا الرومانية الذي امتدت سلطته على سوريا والشرق الروماني كله مما دعا الفرس دائما لمهاجمته، وفي خلال ذلك كان ينيب زوجته الجميلة الحكيمة التي ببراعتها كانت خير قائد.

قتل أذينة فاعتلت العرش باسم ولدها وهب اللات، وبدأت بتثبيت عرشها وتقوية أركان الدولة التدمرية التي كانت تابعة للحكم الروماني، ولكن زنوبيا تمردت عليه فقام قائدهم هيرقليس بحربها



فهزمته واستقلت بالملك عن الإمبراطور غاليانوس، لقد امتد حكمها من الفرات إلى بحر الروم ومن صحراء العرب إلى آسيا الصغرى، كما قلنا ظلت هذه المرأة الجميلة تحلم بتوسيع حكمها لا تخاف من أورليانوس حتى ضربت النقود باسم ولدها وهب اللات الذي عهدت إليه بحكم مصر، لم يتفق المؤرخون على نهايتها، فمؤرخو الإفرنج قالوا إنها بعد أن قهرت الإمبراطور غاليانوس قاتلها الإمبراطور أورليانوس الذي انتصر عليها بعد أن حاصر مدينتها تدمر وجوع أهلها"[1].

. هكذا هم يحبون الحصار وتجويع الشعوب من أول التاريخ حتى يومنا هذا . المهم أن الرواية تقول إن أهل تدمر أهلكهم الحصار، فاضطروا إلى التسليم، وقبض عليها وحملت أسيرة إلى تيبور ثم بلغها أن تدمر قد دمرت فاشتدت آلامها وماتت غما!!

هكذا تقول رواية أشاعها بعض الرواة، أما الرواية الأقرب وهي التي ضرب بها المثل: "لأمر ما جدع قصير أنفه" فتقول إنها ظلت في تدمر وحاربت جذيمة الوضاح ملك العراق، وبعد أن انتصرت عليه، احتال ابن أخت هذا الملك واسمه عمرو بن عدي ودخل قصرها، بواسطة قصير الذي جدع أنفة ليحتال عليها، ويمكن خصمها من قتلها بالخداع، ولكن هذه الملكة أبت إلا أن تنهي حياتها بنفسها، فامتصت سما كان في خاتمها وقالت "بيدي لا بيد

---

(1) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام صفحة 130 ـ 131 لعمر رضا كحالة.

عـمـرو" على أي حـال، كـانت امـرأة ليست كـأي امـرأة، كـانت امـرأة مـدهشـة بكل المقاييس، ولأن المقـاييـس تختلف مـا بين الرجل والمرأة شكـلا لا مـوضـوعـا فـإن المواضـيع التي تتناول المرأة توضع في مـقـاييس الـرغـبـات، ولأن الـرغـبـة هـي أن تبـقـى المرأة في الحـيـز "اللاعقلاني" فهي حيوية فقط في الحيـز العاطفي "هكذا وضعوا" والقول الفصل: لو تساوت المعطيات الثقافيـة التي تميـز بين ذكر وأنثى في التعـامل فسنجـد أنهم يتعـاملون بمنطق مـزدوج، يشـوه ويزيف، مـا يجـيش في نفس البنت أو في نفس الولد، من رغبـات إنسانيـة لا تتعـارض مع جنسـه أو تكوينه الإنسـاني العقـلاني. إنهم يقولبون الماء فيصبح ثلجا.

إذن الزبـاء عقل تهيأ له القفـز فوق السياجات الانتقائيـة فحلق في فضاء الإبداع قبل أن تصطاده بنادق الفكر الجنسـاني المهيمن!!

لقـد أبدعت هذه المرأة، مثل أي قائد شـجاع مثقف، حلقت في فضـاء الحكمة والشجاعـة، لم يمنعها جنسـها ولا شكلها الجـميل من ممارسـة الفروسية واتخاذ القرارات فأبدعت![1].

آسيـة:

ومن تدمـر إلى مـصـر نـرحل سـويا يا أيهـا الرجل من جنوب الأرض لنؤكـد، مـرة أخـرى، أن لهـا، أعني المرأة، أن تتـخـذ القـرار

(1) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحاله صفحة: 131. وأعلام النساء زينب العاملي صفحة: 357.



وحدها وتنفذه، غير خاضعة لأحد كائنا من كان، فهي المسئولة عن نفسها، ولقد أيدها نور السماوات والأرض في ذلك، قال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(1) لقد رفضت أمتع مكان تجد فيه المرأة، أو غير المرأة، كل ما تشتهي لأنها ترفض أن تقاد إلى ذل الحياة المادية التي لم تنعش روحها الباحثة عن الحياة الأخرى التي آمنت بها، إنها الآن امرأة أعظم ملوك الأرض، ولكنها رأت البعيد، فهفت نفسها الكريمة إليه، آسية امرأة فرعون ملكت إرادتها الحرة فكرمها الله بذكرها في كتابه، إنها الإرادة الحرة الكريمة وعدم الركون إلى القريب الملموس، هل من معترض على العقل الحكيم؟

رفضت ملك مصر العظيمة وهيلمان الملك لأنها رأت بعقلها الواعي وأرادت مُلكا أعظم وأجمل: بيتا دائما في الجنة، ذلك هو ما أرادته، حييت يا آسية بتحية الإسلام والعزة التي لا تنحني.

كليوباترا الملكة الأسطورية:

حواء في مصر، استطاعت في كثير من الفترات أن تكون بؤرة الضوء، ولم يخف هذا الضوء وجود ملوك تقشعر لحكمهم الجيوش والأبدان، وكليوباترا الملكة الأسطورية كانت خير مثال، كليوباترا كانت من سلالة البطالمة المعروفين بحبهم لسفك الدماء،

(1) سورة التحريم آية: 11.

فبطليموس الأول اسمه (سوتر) ومعناها منقذ شعبه، وهذا الحاكم كان مشهورا بإطاحته لكثير من الرؤوس وإسالته أنهارا من الدماء، وبطليموس الثاني واسمه فيلادلفوس ومعناها رجل الحب الأخوي، قتل اثنين من أخوته، وبطليموس الحادي عشر، واسمه النافخ في المزمار لأنه كان يشترك في المسابقات التي تجري في نفخ المزمار وهو قد أطلق على نفسه "فليوباتور أي محب أبيه، ولقب "فيلوماتور" أي محب أمه، هذا هو والد كليوباترا، قتل ابنته برينيس وكان محبا للفنون وعازفا، وقد ألف مرثاة، تتلى في جنازة تلك الابنة القتيلة وهي أخت كليوباترا.

ومن عائلتها أيضاً بطليموس الرابع عشر قتل أمه وعمه، وبطليموس السابع واسمه المحسن المتفضل، قتل جماعات من الشعب كي يعلم البقية كيفية احترام مليكهم!!

كانت كليوباترا امرأة لا تقاوم، متألقة ذكاء وفتنة، وعالمة باللغات اليونانية والمصرية والآسيوية وكان لها علم بالكيمياء، بل وهذا من الأشياء المبهرة في هذه الشخصية أن وجد لها بحث علمي حمل اسم "رسالة كليوباترا في السموم"!!، لقد كانت هذه المرأة مثقفة ثقافة عالية وإدارية ماهرة، وكان يحتويها ظمأ شديد إلى المجد والسلطان، كانت محاولاتها لا تقف عند حد في السيطرة على ما حولها ولهذا استأثرت بالعرش متجاوزة أخيها الذي هو زوجها والذي هو أيضاً أصغر منها، فقد كانت في السابعة عشرة، وكان هو في الثالثة عشرة، واستأثرت بالحكم فقاومها رجال



البلاط، وأوصياء زوجها القاصر، وأراد هو أن يمارس هواية آبائه وأجداده، في سفك الدماء، ولكنها انتصرت عليهم، وقاومت أيضا أطماع القياصرة الرومانيين بكل بسالة في بلدها، بل أرادت أن تكون روما التي سيطرت على العالم القديم تحت سيطرتها هي، وقد فعلت ذلك، عن طريق شخصيتها الأخاذة، واختطاف قلب وعقل قيصر روما الملك أنطونيوس، الذي انتصر على بمبي، الذي كان من أعظم قواده وكان قد اتفق معه على أن يقاوموا أي تشريع لا يرضى عنه أي واحد منهما، لقد اتفق بمبي أن يساعد قيصر في أن ينتخب قنصلا، كما تعهد قيصر إذا ما اختير لهذا المنصب أن ينفذ الاقتراحات التي عرضها بمبي، ورفضها مجلس الشيوخ. يبدو أن مجلس الشيوخ منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا كان ضنينا حقودا، لأنه في ذلك الوقت رفض أن يقسم الأرض على الجنود ولم يقر الاتفاقات التي عقدها مع الملوك المغلوبين مثل هذا الوقت. نعود إلى قيصر الذي الذي ما كاد يتسلم مقاليد منصبه حتى عرض على مجلس الشيوخ المطالب التي تقدم بها بمبي: وهي توزيع الأرض على عشرين ألفا من المواطنين الفقراء ومنهم جنود بمبي، والتصديق على الاتفاقات التي عقدها بمبي في بلاد الشرق، وتخفيض المبالغ التي تعهد الملتزمون بجمعها من ولايات آسية بمقدار ثلثها"[1].

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس صفحة: 350.

اتفق القائدان بمبي وكراسس بأن يكون بمبي واليا على أسباني، وكراسس على سوريا لمدة خمس سنوات وأن يظل قيصر واليا على غالة خمس سنين أخرى، وأمد قيصر صديقيه بما يلزمهما من الأموال لخوض المعركة الانتخابية، نجح الاثنان وتفرغ قيصر لحروبه فغزا المانيا وهزم البريطانيين وتفرقت جيوشه في أماكن شاسعة، وانحطت السياسة في السنوات الخمس الثانية من ولايته فقد كان القنصلان بمبي وكراسس يبغي كلاهما أن يكون الحاكم بأمره، فكانت الأحكام القضائية، ومناصب الدولة وعروش الملوك الخاضعين لسلطان روما تباع إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان ـ ما أشبه الليلة بالبارحة ـ استهوت رائحة المال أحط الطبقات، فهرعت إلى روما، وأصبحت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ـ هكذا يعترف التاريخ وسوف يعترف ـ فكان كل من يقبل الاقتراع كما يطلب منه يؤذن له بدخولها، سواء كان من مواطني روما أو من غيرها!!

دب الخلاف وسادت الفوضى فجاء بمبي بجنوده وأخمد الثورة العارمة، ثم طلب إلى المجلس أن يعينه "قنصلا بغير زميل" وهي عبارة أخف من ديكتاتور، ثم عرض بمبي عدة اقتراحات منها إلغاء حق الترشح لمنصب القنصل وهو غائب عن روما ـ وكان هذا قد منح لقيصر ـ وأخذ يشرف بنفسه على قوة الدولة العسكرية وعلى أعمال المحاكم، واستسلمت عناصر الثروة والنظام كلها في عاصمة البلاد إلى ديكتاتورية بمبي"[1] ظن بمبي أنه ملك كل شيء ولكنه

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس صفحة: 368.



أبدا لم يملك القلوب التي أحبت قيصر، حاول قيصر أن يسترضي بمبي ولكنه فشل لأن جيوش بمبي كانت أكثر عدداً، لن أتتبع انتصارات قيصر ولكننا سوف نقرأ عن بمبي الذي هرب من انتصارات قيصر إلى الإسكندرية الذي وصلها فوجد فيها بوثينس الذي بأمر من بطليموس الثاني عشر، أخو كليوباترا، أراد أن يقتله، لقد لقي القائد بمبي طعنة نجلاء حين وطئت قدماه شاطئ الإسكندرية وقطع رأسه ليهديه إلى القيصر[1].

بوثينس هذا نصب نفسه نائباً عن بطليموس ليحكم مصر باسمه وحرض الملك الصغير على أخته كليوباترا التي ذهبت سرا لمقابلة القيصر، وذهل القائد الروماني حين رآها، لقد أسرته شجاعتها وسرعة بديهتها، لقد أصلح بينها وبين بطليموس كما كانا من قبل، حاول بوثينس والقائد المصري أخلاس أن يقتلا قيصر ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التي كانت معه، فتحصن قيصر في القصر الملكي، ثم قرر أن يحرقه تمويها فحرقت معه مكتبة الإسكندرية، اضطر قيصر في إحدى المعارك أن يسبح في البحر وقد قذف به وبأربع مائة من رجاله، وظن بطليموس الثاني عشر أن الثوار قد حالفهم الحظ فخرج من قصره وانضم إلى الجنود المهاجمين، ومنذ تلك اللحظة سقط من ثوب التاريخ الممزق.

ظلت كليوباترا الحاكمة الفعلية لمصر رغم وجود أخيها الأصغر الذي عينه القيصر ملكاً معها[2].

---

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس صفحة: 380.

(2) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس صفحة: 383.

لقد دعاها إلى طرطوس فذهبت في الوقت الذي اختارته وعلى الطريقة التي اختارتها، ذهبت في قارب ذي أشرعة أرجوانية وسكان مذهب ومجاديف من فضة، تنساب في الماء على أنغام الناي والمزامير، وصلت إلى طرطوس وكانت وصيفاتها هن البحارة، يلبسن زي حوريات البحار وتلبس زي (فينوس)، استقبلت القائد الذي كان يريد لومها على ما فعلت مع أخيها الصغير، فقدمت الهدايا وابتسامتها الأخاذة، فكان الرد، أن أهدى لها فينيقيا سوريا وقبرص وأجزاء أخرى من البلاد العربية، دعته إلى الإسكندرية فأجاب الدعوة، ليقضي في تلك المدينة شتاء يملأه الحب وتثريه محاضرات في العلم والثقافة، كليوباترا كانت تعرف أن مصر الغنية الضعيفة لن تلبث أن تجتذب إليها روما الشرهة القوية وأن السبيل لنجاة بلادها وعرشها هي أن تتزوج بسيد روما، ولقد حاولت قبل ذلك مع قيصر وهي تفعل الآن مع أنطونيوس، الذي كان يحلم أن يحقق الحلم القديم وهو توحيد روما ومصر، ونقل عاصمته إلى بلاد الشرق الجميل الفتان، وبينما كان أنطونيوس يعيش الحلم كانت زوجته فلفيا وأخوها لوسيوس يتآمران مع أكتافيان ليسقطاه وينتزعا سلطانه على روما، لقد طلق هذه الزوجة، وتزوج كليوباترا التي أنجب منها قيصرون ـ قتله أكتافيا ـ كانت كوامن الحقد التي تملأ قلب أكتافيا أم فلفيان زوجته التي طلقها، تؤكد لأكتافيان أنه هو وإطاليا جميعا مقضي عليهم إذا نجح أنطونيوس وكليوباترا في خططهما فأخذ يعمل على أن تدرك إطاليا أن أنطونيوس قد تزوج ملكة مصر، وأنه قد منحها هي وأطفالها أكثر ولايات



الإمبـراطورية خـراجا، وأنه سـيضع رومـا وإيطاليـا كلهـا فـي المقـام الثاني بعد مصر.

لقد أوغـر أكتافيـان على أنطونيـوس صدور كثيـر من الرومـان وخاصـة مـجلس الشيـوخ الذي كـان قد أرسل له أنطونيـوس رسـالة يقـترح فيهـا أن يعتزل هـو وأكتافيان الحياة العامة، وأن تعـود جميع النظم الجمـهورية إلى سـابق عـهدها، هـذا الـرجل الحـقود لجأ إلى أساليب الخداع التي هي من أخص خصـائصـه، فأعلن الحـرب على كليوباترا لا على أنطونيوس ليجعلها حرباً مقدسة في سبيل إطاليا.

سـمـعت كليـوباترا وأنطونيـوس استـعـدادات أكتـافيـان للـحـرب فـشـجـعـتـه كليـوباترا على رد الغـدر وفـي سـبـيل السلطـة العليـا، وسـاعـدته هي على حـشـد أسطول وجيش، وأقـسـمت له بقـسـمهـا المحبب إليهـا، أنها واثقة من النصر وثوقها بأنها سـتتولى الحكم في الكابتـول يوما من الأيام، وأبحـر أسـطـول أنطونيوس وكليـوباترا، وكان مؤلفا من خمسمـائة سفينة حربية، ولم يكن قد ظهـر أسـطـول بهذه القوة من قبل فـي البحار، وكان يؤيده جيش مؤلف من ثلاثمائة ألف من المشـاة واثني عـشـر ألفـا من الفـرسـان، أمـدهـمـا بمعظم أمـراء الشـرق وملوكـه، يرجـون من وراء ذلك أن تـكون هـذه الحـرب وسـيلة للتـحـرر من نيـر رومـة. وعبـر أكتـافيـان البـحـر الأدرياتيكي بـأربعة وأربعـمـائـة سـفـينة وثمـانين ألف جندي مـن المشـاة واثنـي عـشـر من الفرسان وكانت الحرب الرهيبة التي استـخـدم فيها أكتافيان الحقد والأكاذيب وانهزم أنطونيوس وهزمت في أحلامها كلوباترا.

وظلت صرخات شيشرون تتبئ أن التاريخ يلوث بأحبار تمزج بالكذب الملوث، إذ كيف لهذه الملكة الشرقية أن تحصل على لقب ملكة الملوك، لقد فعلت ذلك بسيطرتها على قلب وعقل القائد أنطونيوس؟

هذه كليوباترا المرأة، الملكة، إن علاقة هذه الملكة، وزواجها من قيصر روما لم يسئ إلى بلدها الحبيب مصر بل أضافت إليه، قبرص، وسوريا، وليبيا وتمكنت من جعل الوطن يتمتع بالحرية والاستقلال، حتى انتهاء حياتها الحافلة بالدهاء، وبالحب، والأساطير على يد ابن زوجها بالتبني القائد أكتافيان الذي حقد عليها وعلى أنطوان وانتصر بطرق رومانية فيها الكثير من الغش والخداع والنزال الميكيافيللي غير الشريف، الذي لم يمنعها بأن تطلق صرختها الشهيرة قبل أن تمد يدها إلى ثعبان الصل، ليقذف السم إلى داخل جسدها الجميل: "أبدا لن يجبرني أحد على أن أمثل في موكب نصره"، هذه المرأة الملكة ظل كثير من كتاب الحضارة الغربية يشنون عليها وعلى الإمبراطور الروماني أنطوان الحملات الساخطة حتى وقتنا الحاضر، لقد كتبوا بأن هذا الأنطوان قد أذل الرومان لأنه كان لا يتردد في ترك أهم الجلسات في التريومفير أو مجلس الشيوخ عندما يحضر نداء منها، بل قالوا إنه في أحد الأيام، وكان يحضر مرافعة في قضية مهمة على فورم إحدى المدن الآسيوية مرت كليوباترا محمولة على عرش من ذهب فتركهم مزروعين ولحق بالحبيبة يمشي على قدميه بجانبها ولم



يكتفوا، بل كتبوا و قالوا إن العاشق المحب أنطوان قدم لكليوباترا حرساً خاصاً من الجنود الرومانيين يحملون تروساً كتب على كل منها اسماهما المتعانقان، كيف هذا وهي امرأة بربرية؟!

هم يقولون وليس كل ما قالوا حقيقة.

يقول كاتبهم شيشرون: "كل الشر إنما يأتي من الإسكندرية"[1] لقد ملأهم الغيظ من تلك التي هام بها قائدهم الذي منحها مكتبة برغام التي تضم أكثر من مائتي ألف كتاب تعويضا منه عن حريق مكتبة الإسكندرية الذي تم في زمن مضى، يقول كاتب نسي المترجم أن يضع على الكتاب اسمه، "أعني اسم الكاتب" في كتاب "كليوباترا وعصرها" وقد ترجمه يوسف شلب الشام منشورات دار علاء الدين: "إننا يمكن أن نصدق ذلك: فلم لا يكون أنطوان كريما بأشياء لا تخصه ولا يفهم منها من جهة أخرى شيئاً، بينما كان لكليوباترا تجاهها حس مرهف وأكثر ثقافة مما كان يملكه هو من حس"[2]؟

اعتراف تاريخي ليس برغبة الاعتراف ولكنه حنق من الرجل الكاتب للتاريخ الذي لم يستطع أن يواجه القوة المعنوية لمرأة وهبت الكياسة والحذق ووهبت الحس القيادي، هل نلوم التاريخ الذي مزقوا منه عمدا بعض أرديته فسقطت منه بعض النجوم التي أرادوا أن يخفوها؟

---

(1) شيشرون هذا كاتب متقلب يذهب في كتاباته ومواقفه السياسية مع من غلب، سمي بالتلراني لأنه يشبه في أخلاقه السياسي الفرنسي الشهير بتلران الذي توفي في 1838.

(2) كليوباترا وعصرها منشورات دار علاء الدين ترجمة يوسف شلب الشام: مروج الذهب للمسعودي.

لا بأس عليك أيها التاريخ فالكثير ظل هناك مخفياً!!

عودة إلى بدء:

معرفة ما يصلح المجتمع وفرض الرأي الحكيم بسلاسة وحكمة.. تلك هي السياسة.

وغاية السياسة، هي جمع البشر في عمل جماعي لممارسة الحياة الفطرية بنظام مدني إنساني، هذا النظام المفترض.

هذا النظام لا يرفض فطرية الإنسان ولا يستعير فطرية الحيوان، فالإنسان ميزه الله على مخلوقاته الأخرى بأشياء كثيرة، منها العقل الذي وهبه له في المطلق ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ**﴾(1) ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ**﴾(2) أؤمن بهذا إيمانا مطلقا ولا تعنيني توصيات "نيقولا مكيافللي" وكتابه "الأمير" الذي حشاه بكل ما هو احتقار للبشر وأعلن فيه أن الغاية تبرر الوسيلة.

سوف نقرأه، سوياً، أو ندخل في بعض ردهاته المطلية باللون المعتم.

وقبل أن ندخل في ردهات هذا الكتاب أو هذا المنحنى الذي سقط فيه الكثيرون من الذين اقتنعوا بآرائه الشيطانية، لنعترف أن لكل عمل غاية مُرادة، ولا بد لتحقيقها من وسيلة أو وسائل تعددت أو قلت، إذن يسأل سائل: ما الغاية من وضع هذا الكتاب (لا أعني

---

(1) يونس: 14.
(2) يونس: 13.



بطبيعة الحال كتاب الأمير لنيقولا مكيافللي)، وإنما أعني هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ وما الوسيلة لتحقيقه؟

الغاية تتبرأ!!

في الحقيقة إن الغاية من وضع هذا الكتاب: هو إثبات أن المرأة ليست طارئة على السياسة، ففي واقع الأحداث سابقا ولاحقا كانت المرأة وسط السياسة منذ وضعت السياسة، فالرجل لا يعيش وحده على هذه الأرض ولا يوجد رجل دون امرأة، فالسياسة تحكمهما سويا، تكون خلف أو أمام، فالطريق واحدة، تتسارع الخطى في منحنى وتتباطأ في منزلق يخاف منه السقوط.

إذن الغاية علمناها، وهي تتبرأ من مبدأ ميكيافللي، فما هي الوسيلة؟

وهل ستبرر لنا غايتنا اتباع كل الوسائل للفوز بغايتنا؟.. أعوذ بالله وهو الحق، فلغايتي أعد صادقة، إني سوف أتبع الحق مهما أتعبني الطريق ومهما تعددت مسالكه.

سوف أكون رفيقة صادقة رغم رفض رفيقنا في هذه الحياة!!

لن أتبع تعليمات "نيقولا ميكيافللي" ولكن سيكون أول بدئي ونهايتي الحق، وأمامي استقراء التاريخ، ففيه أحداث رغم ضياع الكثير منه لا تزال تضيء الأوراق، تلك الأوراق التي أهيل عليها كثيراً من الغبار، لكن الغبار، رغم ضرره المؤكد لا يقتل، إنه مثل الرماد يخفي الجمر ولكن الويل لمن يطأه، سوف تتورم قدماه، ثم لا يعود للمشي السوي.

رجال التاريخ عندما يكتبون ينسون أن التاريخ لا يموت وإن طعنوه في أحشائه فهو يظل لا يموت، منهكا يظل لكنه يصل.

إذن أمامي الأحداث تترى وأمامي التاريخ، وكتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لي أن أقرأه بتأن وموضوعية ولي أن أغوص في بحاره، ألتقط بعض المحارات التي لم يأتها التشويه ولن يأتيها مهما فعلوا، فما زالت زبرجدا وياقوتا، سوف أمر على أنهار وبحار وأهبط مغارات، لن أخاف النتوءات الجارحة، فلقد اعتدت على الجراح، ألست امرأة من بين جراحاتها تأتي الحياة؟

إن الولادة جرح يهب الفرح!

هل نعود إلى الغاية التي تبرر الوسيلة كما قررها المعلم (نيقولا مكيافللي)؟

هذه الغاية أباحت له أن يشكك في نوايا البشر ويتهمهم بالخبث وسوء النية!: يقول (نيقولا مكيافللي) في كتابه الأمير، في الباب السابع عشر: (وقد يقال عن الناس بصورة عامة، إنهم ناكرون للجميل، متقلبون، مراؤون، ميالون إلى تجنب الأخطار، شديدو الطمع وهم إلى جانبك طالما أنت تفيدهم فسيبذلون لك دماءهم وحياتهم وأطفالهم وكل ما يملكون كما سبق لي أن قلت طالما أن الحاجة بعيدة نائية ولكنها عندما تدنو يثورون، ومصير الأمير الذي يركن إلى وعودهم دون اتخاذ أية استعدادات أخرى إلى الدمار والخراب (خرب الله بيت كل الميكيافلليين) إذ إن



الصداقة التي تقوم على أساس الشراء، لا على أساس نبل الروح وعظمتها، هي صداقة زائفة تشرى بالمال ولا تكون أمينة موثوقة، وهي عرضة لأن لا تجدها في خدمتك، في أول مناسبة)[1] قال مكيافللي أيضاً: "ولا يتردد الناس في الإساءة إلى ذلك الذي يجعل نفسه محبوبا بقدر ترددهم في الإساءة إلى من يخافونه إذ إن الحب يرتبط بسلسلة من الالتزام التي قد تتحطم بالنظر إلى أنانية الناس عندما يخدم تحطيمها مصالحهم بينما يتركز الخوف على الخشية من العقاب وهي خشية قلما تفشل"!

سبحان الله أين هذا من: (وأمرهم شورى بينهم)!

هذا المكيافللي يقول أيضاً: "على الأمير، ويقصد هنا، الزعيم أو القائد، أن لا يستهدف شيئا غير الحرب، تنظيمها وطرقها وعليه أيضا أن لا يفكر أو يدرس شيئا سواها، إذ إن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى القيادة![2].

يقول: (ميكيافللي): "على الأمير أن لا يكترث كثيرا باشتهاره بالبخل هذا إذا رغب في تجنب سرقة شعبه"![3].

هل ترى أن هذا شيئاً مناسباً للقائد ليفعله طبقاً لتعاليم ميكيافللي؟

(1) كتاب الأمير نيقولا ميكيافيللي صفحة: 144.
(2) كتاب الأمير لميكيافللي ص131.
(3) كتاب الأمير لميكيافللي.

أنا لا أظن ذلك!؟

يقول ميكيافللي "إن الجود ضروري للأمير ولكن ليس من ماله الخاص بل يجب عليه أن يوفر ثروته ويعيش على ما ينهبه ويسلبه ويحصل عليه من التصرف في أموال الآخرين"!![1].

ويبرر هذا المكيافللي: "أن إنفاقك لأموال الآخرين لا يقلل من شهرتك، بل يرفع قدرها بينما إنفاقك لأموالك يلحق بك الضرر، وليس هناك ما هو أشد ضررا على نفسك من الجود والكرم.[2]

لا رفع الله لك قدرا يا ميكيافللي حتى بعد أن مت، كلنا نعلم أن الكرم من مال الغير رذيلة وليست فضيلة، أبدا، لن أستطيع أن أترحم عليك يا ميكيافللي فالفضائل ضاعت منك كثيراً، كثيراً..

ولم يكتف هذا المكيافللي أبدا بالقليل من الموبقات، فلقد زين للأمير أن يكون حيوانا في ذاته، أي أمر أن يكون ثعلبا وأسدا بينما نور السماوات والأرض كرم الإنسان بجعله إنسانا وحسب، يحافظ على وعوده، لا يثنيه عن وعده شيئا، يقول ميكيافللي: إن على الحاكم الذكي المتبصر، أن لا يحافظ على وعوده عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الإضرار بمصالحه وأن الأسباب التي حملته على إعطاء هذا الوعد لم تعد قائمة..![3]

(1) نفس المصدر: صفحة: 140.
(2) نفس المصدر: 141.
(3) الأمير ميكيافللي صفحة: 148.



لا، لم يكتفِ "نيـقـولا مـيكيـافللي" بذلك بل قـال: "إن أولئك الذين تمكنوا من تقليـد الثعلب تقليدا طيبـا، ويقصـد متقنـا، قد نجحوا أكثر من غيرهم"، وقـال إن الضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة أن يجيد إخفاءها عن الناس وأن يكون مداهنا كبيرا ومرائيا عظيمـاً.[1] هذا المبدأ الميكيـافللي جعله كثير من الحكام مصباح علاء الدين وماردا يحملهم إلى مصالحهم الذاتية التي لا تنتهي ويفزع الرعية التي تتطلع إلى أعلى.

حاشية: كان لابد من وضعها هنا في عرض الكتاب وطوله، وليعذرني القارئ إذ إن موضوعنا كان وما زال عن المرأة السياسية ولكن لأن السياسة قد لونها "مكيافيللي" بلون يختلف عن الألوان الإنسانية الأخرى كان لا بد من هذه الحاشية أو الوقت المستقطع. الملك فريدريك الأكبر كان له موقف عجيب مع ميكيافللي فقد كان في بدء عمره تلميذا حميماً لفولتير الشاعر والفيلسوف الفرنسي الكبير وكانت بينهما مراسلات طويلة وكانت وثائق مهمة عن ذلك العهد كشفا وإثارة: فهي تعبير أدبي رائع لشخصيتين بارزتين، فقد أعجب الأمير فريدريك بأفكار فولتير للدرجة التي جعلت هذا الملك يكتب كتاباً أسماه "الرد على كتاب الأمير لميكيافيللي"[2] حاسب فيه ميكيافيللي حساباً عسيراً على ما بدا في كتاب ذلك الفيلسوف الإيطالي من تبرير لأي ذريعة يراها الحاكم ضرورية لصيانة حكمه،

---

(1) ول ديورانت المجلد التاسع عشر، صفحة: 75.

(2) قصة الحضارة ول ديورانت الجلد التاسع عشر صفحة: 75.

وأكد فيه فريدريك الذي لم يكن إلا ولياً للعهد بعد أن: "المبدأ الحق الوحيد للحكم هو ولاء الملك وعدله وشرفه"(1).

وأعرب فريدريك عن احتقاره للملوك الذين يؤثرون "مجد الفاتحين المهلك على المجد الذي يكسب بالعطف والرحمة"(2).

وتساءل فريدريك الأمير الفيلسوف: ما الذي يغري إنسانا بأن يطلب عظمته الشخصية بإشقاء غيره من الناس وتدميرهم"(3).

ويستمر فريدريك: "إن ميكيافيللي لم يفهم طبيعة الملك الحقة.. فهو ليس السيد المطلق المتصرف فيمن يدينون لحكمه، إنما هو أول خدامهم، وينبغي أن يكون الأداة لرفاهيتهم كما أنهم الأداة لمجده"(4).

فريديك عندما أصبح ملكاً وبعد فترة أسابيع وعلم أن محصول الغلال سيكون هزيلا أمر بأن تفتح مخازن الغلال وتباع للفقراء بأسعار معقولة وألغى في جميع أرجاء الوطن اللجوء إلى التعذيب في المحاكمات، واصدر أمراً بالتسامح مع جميع الأديان لأن كل إنسان يصل إلى السماء بطريقته الخاصة(5) ولأن المصالح الخاصة تظل مثل طائر الفينيق في أساطير الفينيقيين رأى

(1) ول ديورانت المجلد التاسع عشر، صفحة: 76.
(2) المصدر ذاته صفحة ص 76-90.
(3) المصدر ذاته صفحة: 76.
(4) ول ديورانت قصة الحضارة الجلد التاسع عشر صفحة: 76.
(5) نفس المصدر صفحة: 78.



فريدريك أن جارته التي تولت عرش النمسا والمجر شابة لها جيش من الدرجة الثانية وأن لديه 100,000 مقاتل أرسل فريدريك إلى صديقه فولتير خطابا جاء فيه "إن موت الإمبراطور - يعني الإمبراطور شارل السادس - يغير كل أفكاري السلمية، وأظن أن الأمور ستنحو في شهر يوليو نحو المدافع والبارود والجنود والخنادق بدلا من الممثلات والمراقص والمسارح، بحيث أراني مضطرا إلى إلغاء الاتفاق الذي كنا على وشك إبرامه"[1] إنها المصالح التي عارضت قول فريدريك بعد ستة أيام من توليه العرش في رسالة بعثها لفولتير: "لقد تبدل حظي، وشهدت اللحظات الأخيرة لملك، ومعاناته، وموته، لم يكن بي حاجة وأنا أرتقي العرش إلى ذلك الدرس لكي أشمئز من خيلاء العظمة البشرية... وأرجو ألا ترى فيّ إلا مواطنا غيورا، وفيسوفا تغلب عليه نزعة الشك، وصديقا صدوقا، وإني أستحلفك بالله أن تكتب لي كتاباتك لإنسان عادي، وأن تحتقر مثلي الألقاب والأسماء وكل مظاهر الزهو والغرور"[2].

وغرهم بالله الغرور، اغتر فريدريك بقوته واتبع ميكيافللي، وإن ميكيافللي لرجل لئيم.

اعود إلى النساء والتاريخ الذي يكتبهن، إنه يكتبهن خاملات في عالم يتحرك من حولهن، وإذا تحركن فهن يتحركن إلى الشر،

(1) ول ديورانت المجلد التاسع عشر صفحة: 80.
(2) ول ديورانت المجلد التاسع عشر صفحة: 77.

لم ينصت التاريخ أبدا للنساء إلا في لحظات تشبه الحلم الذي يوقظ بضربة من قلم يخاف، إنها ورطة رجال التاريخ الخائفين، لا يريدونهن، ولكنهم يحتاجون إليهن!

المفارقة التي لا أستطيع إلا أن أقف أقلب صفحاتها المتعددة هي أن المرأة التي حكمت لم تحكم في زمن التكنولوجيا والأزرار التي تستطيع بها أن تمحو بلدا من الوجود أو تخاطب النجوم، ولكنها حكمت في أمكنة وأزمنة تناهت في البعد والصعوبة، في لحظات من التاريخ بدت المرأة كشخصية محورية يدور حولها التاريخ بثوبه العتيق في محاولة لإعادتها كما يهوى شخصية ثانوية تمده بالإنجاب والإيجاب، وهو ما تفعله حقيقة ولكن هذا التاريخ الهزيل لم يستطع جسده المترهل والمنهك إلا أن يحمل بصمات الأنثى التي ظلت على شكلها الزهري على الرغم من التغضنات التي كست جسده، ولأن هذا التاريخ باقٍ لا يموت بمرضه وأوجاعه وثقوب جسده المنهك، فإنني قد حملته معي في رحلتي اللولبية ولم أتركه ليستريح طويلاً في كل الأمكنة، فهو دائما يظل متعباً ومتعباً، وإنما اخترت بعض أمكنة، رغم رماد العواصف التي ظل جمرها يتلظى، حملته لعل هذا التاريخ المنهك المريض يتدفأ بنار الحقيقة النائمة تحت الرماد، لقد نامت الحقيقة في أمكنة كثيرة وظل التاريخ يستغني عنها خاصة إذا آنس أن بعض الدفء ضاع، فإنه لا يأبه بالوقوف عندها ولكنه في أمكنة أخرى يتوقف لا يبغي الحقيقة ولكن يبغي الدفء القليل المنبعث من هذه الأمكنة القليلة



التي توقف عندها كثيراً، توقف في أوروبا كثيرا هذا التاريخ، هذا الذي لا يأبه كثيرا بالاختيار، فالملكات الأوروبيات أخذن حظهن، وأكثر من دفاتر التاريخ على رغم الصقيع، لأن التاريخ هناك توقف بفعل العوامل البيلوجية المساعدة، أما في الشرق الذي اختلف، فعلى الرغم من البصمات الأنثوية الواضحة وضوح شمس الشرق، ظل التاريخ لا يلتقط إلا الكواكب الكبيرة بينما في أوروبا يستطيع أن يلتقط حتى النجيمات في عز الظهيرة ولأنهن نجمات أو نجيمات في عز الظهيرة كان لا بد أن نقترب من كراسيهن لنعلق على تيجانهن قطعة من ثوب التاريخ الممزق، فهو على أي حال ثوب التاريخ، ولقد حظين به أكثر من بنات الشرق المضيئات لأن البيئة كانت كما رأينا أقل قسوة على جسده المنهك أصلاً.

في أوروبا كان التاريخ أبا حانيا معي مثلما هو مع بقية من نساء عاملات، منحنياً كثيراً من الأوراق التي لم تصفر إلا قليلا، لقد وضعها بين يدي وقال إني خيرتك فاختاري ولم احترْ، فقد اخترت البصمة التي شكلها أنثى[1]، وهي على أية حال قد لا تكون بنفس البريق الألماسي الذي عليه أنثى الشرق، ولكنها تظل بريقا يخطف الأبصار رغم الأحجار التي لم توارِ قصور التاريخ![2].

---

(1) الأمير صفحة: 149.

(2) (كتاب الأمير، ميكيافللي. ص149).

إليزابث تيودور:

قال عنها سيسل: "إنها أعقل امرأة وجدت لأنها فهمت ميول كل أمير في زمانها وما يولع به وما يستهويه، وكانت على علم تام بمملكتها إلى حد أن أياً من مستشاريها لم يكن لينبئها بشيء لم تكن تعرفه من قبل"، إنها الملكة إليزابث تيودور التي أصبحت ملكة على انكلترا في عام 1558م، "لقد تمكنت هذه المرأة من تلقين وزراء الخارجية في زمانها درساً في الإعلام النشط السريع والوسائل اللبقة، والماكرة بفطنتها السياسية وبراعتها"(1)، ذلك مكنها من مد حكمها إلى خمسة وأربعين عاماً، ولا أدري في الحقيقة هل كان ذلك استجابة لدعاء رجال البرلمان: "حفظ الله الملكة إليزابث، فليطل أمد حكمها علينا"؟

أم إن الذكاء والفطنة وقدرتها على اختيار معاونيها المتميزين هي سبب البقاء؟

لقد هيأت خمس وعشرون سنة من المحاكمات إليزابث للسيطرة وللتفوق، فقد بدأ من حسن طالعها أن يكون هنري الثامن أبا لها، ولكن كان خطرا عليها أن تكون أمها آن بولين، لقد أعدمت أمها في وقت لم تكن إلا طفلة لا تعي، ولكن مرارة هذا التراث الكريه لازمتها في شبابها ولم تبرأ منها إلا حين أصبحت ملكة، لقد صدر قرار البرلمان في عام 1536 على أن زواج آن بولين

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الرابع عشر بداية عصر العقل صفحة: 11.



وهنري باطل فإذن هي ابنة غير شرعية ظل هذا حتى أصدر البرلمان قرارا بحق إليزابث في تولي العرش بعد تولي أخيها من أبيها إدوارد وأختها من أبيها ماري، هنا نعود لميكيافللي واستخدامه لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، الملكة إليزابث استخدمت هذه المقولة بالإضافة لمهارتها السياسية وجمالها وأنوثتها الطاغية، فقد كانت هذه الملكة مليحة القسمات حسنة المظهر واللياقة مما مكنها من السيطرة على العقول والألباب!!

لقد كانت إليزابث بروتستانتية في ظل حكم أبيها إدوارد ولكن عندما اعتلت أختها الكاثوليكية ماري العرش، آثرت إليزابث الحياة على تمسكها بمذهبها الذي كانت عليه، كانت هناك مؤامرة تحدث غالبا بين ذوي السلطة، ولكن هذه المؤامرة لم تنجح في قلب الحكم ونجحت في إلقاء إليزابث في سجن برج لندن لأن هناك تهمة، ولم تثبت وأفرجت عنها أختها ماري "السفاحة"(1).

هذه الأخت التي لقبت بالسفاحة أرسلت لإليزابث مجوهرات التاج البريطاني، إليزابث دائما لم تكن مطمئنة على عرشها، فقد اتفقت الحكومة والكنيسة على أنها ابنة غير شرعية وقد استبعد القانون الإنجليزي كل أولاد الزنى من ولاية العرش، وكانت إنجلترا في ذلك الوقت لا تزال كاثوليكية، وقد أشير على إليزابث بأنها لو هادنت الكنيسة ليمحو عنها البابا وصمة البنوة غير الشرعية واعترف بحقها في الملك ولم يكن بها ميل إلى هذا، ولأن آلافاً من

(1) ول ديورانت المجلد الرابع عشر قسم بداية العقل الصفحة: 4.

الإنجليز كانوا قد وضعوا أيديهم على أملاك انتزعها البرلمان من الكنيسة في عهد هنري الثامن وإدوارد السادس، وكان هؤلاء الملاك يخشون العودة إلى الكاثوليكية ومن ثم تفرض الكنيسة استعادة أملاكها، كانوا على استعداد للنضال من أجل ملكة بروتستانتية، وأيضا بعض الكاثوليك آثروا الملكة البروتستانتية على الحرب الأهلية.

لقد برزت حكمة إليزابث في الحكم باختيارها رجالا ليسوا من أصل عريق، ذلك أن معظم قدامى النبلاء كانوا من الكاثوليك وفي ظن بعضهم أنهم أصلح منها لتولي العرش، لقد عينت وليم سيسل سكرتيرا ومستشارا أول لها، وكان عبقريا في انتهاج سياسة حكيمة ومدبرا للأمور عاملا بارزا في نجاحها، لقد ترك وليم هذا جامعة كمبردج دون الحصول على درجة جامعية، ولكنه دخل مجلس العموم في سن الثالثة والعشرين، كان ملتزماً بالبروستانتية ولكنه تحول في اللحظة الحاسمة إلى ماري تيودور وأصبح كاثوليكيا مطيعا بناء على اقتراح منها ـ أنه متوازن سياسياً ميكيافيلليا ـ "لقد احتفظت به إليزابث لمدة أربعة عشر عاماً كسكرتير وعينته بعدها وزيرا للخزانة لمدة ست وعشرين سنة أخرى رأس فيها مجلس شورى الملكة، وأدار دفة العلاقات الخارجية والشؤون المالية العامة والدفاع الوطني وقاد خطى إليزابث في تدعيم المذهب البروتستانتي في إنجلترا"[1].

---

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الرابع عشر بداية عصر العقل صفحة: 7.



ماري انطوانيت:

في كل الأحوال، وليطمئن الذين قد يكون في قلوبهم بعض الشكوك أن يكون هناك بعض جزء من الانحياز، فإني سوف أقرُ أنا المرأة الباحثة عبر هذه العاصفة اللولبية، التي حملتني من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب بأنه "ليست أي امرأة امرأة" فماري انطوانيت ملكة فرنسا وابنة الإمبراطور فرانز الأول عاهل الإمبراطورية الرومانية جعلت الشعب الفرنسي يكره زوجها الملك لويس السادس عشر الذي لم يكن محبوبا في الأساس، هذه المرأة التي ينقصها الذكاء كثيرا والتي أطلقت مقولتها الشهيرة: "لماذا لا يأكلون البسكويت بدلا عن الخبز" عندما رأت الفقراء يصرخون من الجوع، هذه المرأة كانت سببا من أسباب سقوط زوجها وإعدامه!!

فقد حولت هذه المرأة الشديدة التبذير، المتعجرفة، الخزائن الفرنسية إلى خاوية الوفاض، لقد أطلق عليها شعبها "السيدة إفلاس" هذه السيدة التي كانت حقا وصدقا جاهلة بالسياسة ولم تكن حاذقة كامرأة من سيدات السياسة، أقنعت هذه المرأة التي أيضاً لم تملك الذكاء كما ملكت الخزائن، أقنعت زوجها بالهروب بعد أن عاثت في الحكم فسادا وجلبت الخزي والعار لوطنها لاستدعائها وزوجها قوات أجنبية كي تسهم في إخماد الثورة ولكن الشعب الفرنسي الذي ثار على الفساد، كشف الأمر واستطاع القبض عليها وزوجها ومحاكمتهما سنة 1792م ومن ثم إعدامها

1793 بالمقصلة بعد تسعة أشهر من إعدام زوجها لويس السادس عشر[1].

هزيلة، لم تكن هزيلة:

على ذكر الحمق والذكاء تحايلت قليلا على عاصفتي اللولبية لتتركني قليلا في الجّوا وهي منطقة تقع في نجد من جزيرة العرب، كانت من أخصب المناطق النجدية أقام فيها بنو طسم وبنو جديس وهم جميعا من أبناء سام بن نوح عليه السلام وكان ملكهم أيام ملوك الطوائف الجاهلية عمليقا وكان ظالما متماديا في ظلمه وأحكامه الغريبة التي لا تمت للذكاء بقرابة ولو من بعيد ولكن لها فواصل في الطمع والغرابة والظلم العاري، لقد لجأت له امرأة اسمها هزيلة تشكو من زوجها الذي طلقها ويريد أن يأخذ منها طفلها، بعد أن فطمته من الرضاعة، قدمت هزيلة لشكواها بالقول: أيها الملك حملته تسعا ووضعته دفعا وأرضعته شفعا حتى إذا تمت أوصاله ودنا فصاله أراد أن يأخذه مني كرها ويتركني ورها.

وهنا أتى دور زوجها فقال أيها الملك: إني قد أعطيتها مهرا كاملا ولم أصب طائلا إلا وليدا خاملا فافعل ما كنت فاعلاً.

فماذا فعل الملك الهمام؟

لقد أمر بالطفل ليصبح من أملاكه، وقال لهزيلة ألغيه ولدا ولا تنكحي أحدا واجزيه صفدا، فقالت هزيلة: أما النكاح فإنما بالمهر

---

(1) عمر رضا كحالة أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام صفحة: 210.



وأما السفاح فإنما بالقهر ومالي فيهما من أمر، فلما سمع ذلك العمليق قولها، أمر أن تباع المرأة فيعطى زوجها خمس ثمنها وأن يباع الرجل وتعطى المرأة عشر ثمن زوجها!

هنا صرخت هزيلة، وهي امرأة شاعرة:

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا

فأنفذ حكما في هزيلة ظالما

لعمري لقد حكمت لا متورعا

ولا كُنت فيمن يبرم الحكم عالما

ندمت ولم أندم وأنى لعترتي

وأصبح بعلي في الحكومة نادما[1]

سمع هذا الملك العمليق الطسمي صرخة المرأة الجديسية ولم يخجل بل تمادى في غفلته وظلمه فأمر أن لا تزوج امرأة بكر من جديس إلا بعد أن يتزوجها قبلا!!

شموس:

لقد ابتليت جديس وأذلت واستمر هذا العمليق على فعاله الشنيعة حتى أتى الدور على امرأة اسمها الشموس عفيرة بنت

(1) عمر رضا كحالة أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام صفحة 210 - 211.

عباد الجدسية أخت الأسود الذي كان مطاعا في قومه، فلما حان زواجها انطلقوا بها إلى عمليق، والأناشيد الحزينة ترافقها :

أبدي بعـمليق وقـومي فـاركـبي

وبادري الصـبح لأمـر مـعـجب

فـسـوف تلقين الذي لم تطلبي

ومـا لبكر عنده من مـهـرب

خـرجت الشـمـوس من عند العـمليق والدمـاء تسـيل منهـا وقميصها قد شق من قبل ومن دبر لتريهم العار الذي صمتوا عنه وهي تنشد :

لا أحـــد أذل من جـــديس

أهكذا يفـــعل بـالعـــروس؟

لقد كان تحريضها أشد مما تفعله الآن القنوات الفضائية، هزت المشاعر وهي تصرخ:

أيجمل ما يؤتى إلى فـتيـاتكم

وأنتم رجـال فـيكم عـدد النمل

ولـو أننـا كنـا رجـــالاً وكنتم

نســاء لكنا لا نقر لذا الفـعل



فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم

وذبوا لنار الحرب بالحطب الجزل

فبعدا وسحقا للذي ليس دافعاً

ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

وأيضاً:

فللبين خير من مقام على الأذى

وللموت خير من مقام على الذل

ويثور بركان الغضب، هي الشموس التي ترفض الضيم وتكره الخنوع، لقد سمع أخوها تعريضها برجولتهم فهبت برأسه عاصفة النخوة ورفض الخنوع، مما حدا به إلى دعوة قومه لمقاومة هذا الظلم.

قال لهم ذلك الأخ: إن هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم ولولا ضعفنا وهو يعني استسلامهم لما كان لهم فضل علينا.

المهم أن هذا الأخ اقترح على قومه أن يقوموا بدعوة ذلك الملك وقومه للطعام وقال لهم: فإذا بدأ ذلك الملك وقومه بالأكل نكون قد أخرجنا سيوفنا التي خبأناها تحت الرمال، وهكذا أكلوهم العقاب الرهيب بدلا من أطايب الطعام، لقد قتل عمليق وأهله جميعا لأن الشموس لم ترض بالذل ولأن هزيلة استنكرت حكم ملك ليس له في الحكمة نصيب إنها سياسة الرفض والإعلام المؤثر[1].

---

(1) أعلام النساء عمر رضا كحالة صفحة 297 ـ 2298 الدر المنثور لزينب بنت فواز العاملي صفحة: 819.

وفي الحكاية الشعبية دلالة:

وللحكايات الشعبية وقع لا يأتي عبثا وإنما يأتي دلالة على موروث شعبي لُمس وتأصل في عمق الشعوب، وهنا تأتي هذه القصة وليس للتاريخ وللأسماء وإنما دلالة على سياسة المرأة وذكائها الخارق في كل عصر وفي كل مكان وفي كل ثقافة وهنا سوف أورد حكاية طريفة من الحكايات الشعبية المصرية التي أوردها الدكتور عبد الله الغذامي في مقالة له، تقول الحكاية: "إن رجلا كان يسيء معاملة زوجته، وطال عذاب الزوجة حتى نفد صبرها معه، ولم تجد من سبيل للخلاص من عذابها إلا عبر الحيلة، كيف؟

قررت أن تقوم بعمل سياسي لا يستلزم منها سفارة أو وزارة، لقد صارت تتخفى خلف الجدار وتحكم الاختفاء حتى لا يلحظها أحد، ثم تبدأ الكلام بصوت مبحوح، لا يدل على صوت امرأة ولا صوت رجل، وإنما كأنه هو صوت شبح مجهول الهوية، يبدأ الصوت محذرا ومخوفا الرجل من مغبة تعامله السيئ مع زوجته ثم يصدر الصوت أوامر إلى الزوج بإحسان العشرة ويأمره بأن يشتري لها الهدايا ويكرم مقامها عنده، ويتكرر ذلك على الرجل كل ليلة في أول الليل حينما يكون في بداية منامه، وإذا حاول الرجل أن يطرح سؤالاً على الشبح جاءه الوعيد والتهديد والتخويف من المرض والعمى والإعاقة إن هو خالف أوامر الشبح.



وانصـاع الرجل للتعليمـات وصـار يطيع الشـبح في كل شيء وصار ينفذ الأوامـر، وامتـد ذلك زمنا غيـر قصيـر حتى جـاء يوم تشكك فيه الرجل من هذا الشبح ومداومته عليه كل ليلة.

وصـار يفكر في الأمـر، ثم احتـال لنفسـه بحيلة اكتشف من خلالها أن ذلك الشبح لم يكن سوى زوجته نفسها تختبئ خلف الجدار وبصوت تمثيلي متقن تحقق مطالبها منه!

هل غضب الرجل الشرير؟

لا لم يغضب، بل أغراه هذا الاكتشاف لقدرات زوجته ومهارتها الذكيـة إلى أن يستغل الموقف ليجعل منها مصدر ثروة له وذلك باستخدام هذه، والادعاء بأن في بيته جداراً يتكلم!

صدق الناس البسطاء ما أشيع بأن الحائط يتكلم وفتح داره لمن يدفع ليسمع الأعجوبة (يا سلام الحائط يتكلم) وشاع الخبر وأصبح مثلاً، وكثر الناس وكثر المال ووصلت القصة إلى الحاكم الذي رغب أن يسمع بنفسه وصحب معه رئيس القضاة ورجال الدولة، وأعد لهم الزوج صاحب البيت مكانا للاستقبال وحياهم فرحا ببلوغ شأنه هذا (المبلغ) وتجهزت الزوجة لأداء الدور الذي أدته كما يجب وعم العجب وجوه الزوار ودخلوا دائرة الخوف، وصاروا يسترجعون ويهللون إلا أن أحد المرافقين من ذوي النباهة والملاحظة الدقيقة لاحظ شيئا مما حداه إلى أن يذهب خلف الجدار ويلف حوله وحواليه ويكتشف كومة من القماش ويضع يده عليها ويجد جسداً يتحرك!

إنه هي المرأة، وهنا يغير السيناريو من خلف الجدار بواسطة الرجل الآخر الذي يطلب أسئلة أخرى لم يتفق عليها وهنا يسقط في يد الزوج الذي ينادي على شبحه فلا يرد الشبح بل يخرج المرافق ومعه الزوجة التي كُشف أمرها وأمر زوجها الانتهازي، فيحاكمان ويعلم القاضي بأن المرأة لجأت إلى ذلك التصرف بسبب جور زوجها ويقترح القاضي خلعها منه ولكنها تطلب العفو عن زوجها مبدية الصفح عنه"[1].

إذن ها هي المرأة الحائط الذي يستر العورات بصمت، تتمردُ كمارد بالفعل وبالفكر حتى تجعل الحائط يتكلم وتسمعه المدينة بكل أبعادها.

عائشة العمانية الأبية:

تظل الشموس في أرض العرب مشرقة لا تغيب إلا أن تمر سحابة سوداء يأتي بعدها المطر ليغسل الأرض وينهي الغبار من جنوب جزيرة العرب على شواطئ عمان الجميلة وفي أرض القرنفل "زنجبار" نشأت عائشة بنت سلطان إمام مسقط وحاكمها، نشأت تلك الأميرة العربية التي حمت ابن أخيها الذي آل الحكم إليه بعد وفاة والده وهو بعد صغير لا يحسن الحكم ولا حماية بلده وملكه، كان الحاكم سعيد بن سلطان في التاسعة من عمره عندما توفي والده وكان لا بد أن يولى عليه وصي مما أسعد الوزراء والمقربين

(1) مقالة للدكتور عبد الله الغذامي في جريدة الرياض العدد: 13464.



من السلطة التي شغرت، لأن هذا الفراغ سيتيح لهم ما لم يتح لهم في حياة الكبير!!

العمة عائشة ملأت الفراغ إذ أعلنت إنها سوف تكون هي الوصية وسوف تحكم البلاد!!

وحكمت الأميرة عائشة بقوة وحزم ورغم الصدمة التي مني بها الوزراء إلا أنهم لم يجدوا في نهاية الأمر إلا الطاعة والخضوع، سهرت عائشة على أمن البلاد، والويل للمخاتل والكسول ولم يكسل الرجال الآخرون الحالمون الذين رأوا أن المرأة يجب أن تنزع منها الوصاية والحكم، الذي رأوا أنه خلا لهم وما خلا من المرأة الشجاعة التي صممت على أن توصل الحكم لولي العهد الصغير بعد أن يكبر، لا تحزن يا سعيد فعمتك بالمرصاد لمن يريد أن يحكم البلاد بالنار والحديد، لقد أقبل أبناء العمومة أو الفرع الآخر من الأسرة في محاولة لانتزاع الحكم من تلك الوصية فأعملوا السلاح في أطراف البلاد ووصلوا إلى مسقط الحصينة حاصروها لتجوع وتخضع ولكن هيهات أن تخضع المرأة الشامخة والمدينة المجللة بشموخ المرأة القوية ورجالها المخلصين، رغم الحصار والدمار الذي حول المدينة إلى ملجأ للجائعين، الذين أبوا إلا أن يشاركوها رحلة الكرامة أو الموت، والموت بعزة هو الحياة لمن يطلب العلا، والعلا هو ميتة واحدة بكرامة، وهذا ما قررته السلطانة عائشة بنت سلطان، لقد وجدت أن لديها ما يكفي من البارود لمعركة واحدة ولكن البارود

وحده لا يكفي ولا حديد هناك ولا نحاس إلا في ما يستخدمه الناس كمسامير للأبواب والصناديق!

وهنا كان الحل الذي لا يعصى على المرأة فقد خلعت وجمعت وأعوانها كل مسمار من حديد على باب أو صندوق وصهرت النحاس والرصاص ولم توفر الريالات الفضية التي كانت في خزانة القصر لتكون قذائف مع الحجر الذي التقط بعناية ليتم حشره في فوهات البنادق والمدافع التي صبت حممها على المتربصين على حين غرة، بعدأن ظنوا أن المرأة سوف تهزم وتسلم الحكم لهم، ولكن عائشة الأبية أبت إلا أن تسلم ابن أخيها على طبق من ذكاء وحكمة، الحكم بعد أن يبلغ السابعة عشرة من عمره، وتظل الشموس تشرق دائما في أرض الزهور والعطور، ظلت ذكرى عائشة أريجاً يشم في ربى عمان العزيزة[1].

نورة أخت أخو نورة:

كان ميلادها في عام 1292هـ / 1875م في مدينة الرياض، كانت تشاركه اللعب، وكان يكن لها الاحترام، كانت تكبره بعام، تلك نورة بنت عبد الرحمن بن فيصل آل سعود امرأة لا ينساها التاريخ، إنها أخت الملك عبد العزيز ورفيقة دربه، كانت رفيقته عند خروج الإمام عبد الرحمن بأسرته من الرياض في أعقاب موقعة المليداء 1308هـ/ 1891م.

(1) ذكريات أميرة للأميرة سالمة بنت سعيد بن سلطان.



بعد سنوات وبعد استقرار أسرة الإمام عبد الرحمن في الكويت كانت نورة عاملاً مهماً في شحذ همة أخيها عبد العزيز في السعي نحو استعادة ملك الآباء، فوفقاً للمعلومات المعروفة، كانت نورة هي التي حثته على تكرار المحاولة لاستعادة الرياض الحبيبة بعد أن أخفق في المرة الأولى، فأخذت تقوي من عزيمته وإرادته، وعندما عزم على الخروج من الكويت مع رفاقه لاستعادة الرياض، تحركت عاطفة الأمومة في قلب الأم فبكت والدته بكاءً حاراً وحاولت أن تثنية عن قصده، غير أن نورة الشجاعة شجعته وشدت من أزره وهو الأمر الذي انتهى إلى نجاح الملك عبد العزيز، إنه الدليل الذي لا ينكره الشجعان، نورة كان لها في تثبيت الملك عبدالعزيز دور لا ينسى، ولم تكن النهاية للمرأة، الواعية، الحازمة، فعندما عادت الأسرة إلى الرياض، برز دور نورة مؤثراً في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية، لقد كانت عامل ترابط بين عائلة آل سعود الكبيرة. فعلى الرغم من أن بعض الخلافات بين سعود الكبير وبين الملك عبد العزيز فترة من الزمن إلا أنه عاد في عام 1330هـ / 1912م ليصبح من أشد المقربين والمخلصين له، والمرجح أن العامل الأول الذي أدى إلى هذا التحول في موقف سعود الكبير هو تأثير نورة فيه، إذ كان يكن لها حباً شديداً، وتدلل مواقفها معه على حكمتها وتعقلها ورغبتها في رأب الصدع بينه وبين أخيها، كما أنه من جانب آخر ساعد زواج نورة من سعود الكبير الملك عبد العزيز على استقطاب قبيلة العجمان التي كانت

تحترم نورة وتقدرها اعتباراً لأواصر القربى حيث إن والدة زوجها من هذه القبيلة.

لقد جنبت هذه المرأة الواعية أخاها مشكلات وشؤون القصر الداخلية طوال وجودها، خاصة في السنوات الأخيرة من حياتها، فكانت تحل مشكلات القصر وتتدبر الحلول التي تنهي تلك المشكلات.

لقد كانت تشرف على تسيير أمور نساء العائلة بذكاء وحكمة. وكان الملك عبد العزيز يستشيرها في كثير من الأمور التي تهمه، ويعتمد عليها في جوانب تخص شؤون القبائل، خاصة في ما يتعلق بالنساء اللاتي لهن صلات بأفراد من شيوخ القبائل وذوي السلطة في المجتمع، لقد مارست بشخصيتها المميزة واجبات السيدة الأولى، فكانت تستقبل زائرات الرياض إذ توجههن لزيارة ورؤية معالمها المميزة.

وقد لفتت شخصيتها وعلاقتها المتميزة مع أخيها الملك أنظار كثير من المؤرخين والباحثين، خاصة أولئك الذين أتيح لهم مقابلتها أو الاستماع إليها عن قرب، لقد أعجبت فيوليت ديكسون زوجة المؤلف لكتاب "الكويت وجاراتها " ديكسون والتي اشتركت معه في كتابة فصل عن الأميرة والتي قابلتها في عام 1356هـ / 1937م مع بعض نساء الملك عبد العزيز ووصفتها بأنها: "من أكثر النساء اللاتي قابلتهن جاذبية ومرحاً" وأنها: من" أهم الشخصيات في الجزيرة العربية "وتعد: "من أجمل وأعظم وأشهر البنات في كل



عصر". ليتك يا فيوليت سمعت نصيحتها وهي تدعوك للإسلام فقد كانت نصيحة غالية..

يقول عنها هاري سنت جون فيلبي إنها:"كانت السيدة الأولى في بلدها". من الصفات التي تميزت بها شخصيتها أنها كانت تتمتع بالحصافة والحكمة ورجاحة العقل والدين، إضافة إلى ذلك كانت تتمتع بشخصية تنم عن معرفة جدية بسلوكيات التعامل مع الآخرين، وهذه السمة لا بد أن تكون أول سمة من السمات التي تتصف بها من ترى في نفسها بوادر القيادة.

ورحلت الأميرة التي عبقت بالسياسة عن عمر يناهز السابعة والسبعين في عام 1368هـ/1949م. وذكر فيلبي أن وفاتها كانت في شوال 1369هـ/ يوليو 1950م، رحم الله الأميرة نورة، فقد أثبتت أن النخيل في أرضنا تظل شامخة معطاءة. وإن أحاطت بها الجبال الشامخة[1].

الخياطة التي غيرت مجرى التاريخ:

ما الذي دفع متحف هنري فورد في مدينة ديربرون في ولاية ميشغان إلى دفع 492 ألف دولار لحافلة قديمة مهترئة أكل بعضها الصدأ وتعود ملكيتها إلى مدينة مونتغمري في ولاية آلباما الجنوبية؟

---

(1) http://www.darah.org.sa نساء شهيرات من نجد.

ما الشيء الثمين في هذه الحافلة؟

أنه موقف امرأة غيرت التاريخ في الولايات الأمريكية المتحدة، لقد آمنت هذه المرأة بأن الحقوق متساوية مهما اختلفت الألوان وأن الكرامة تستحق التضحية مهما كان نوع هذه التضحية أو ثمنها، في شهر ديسمبر عام 1955م استقلت روزا باركس الخياطة التي كانت تعمل في أحد المتاجر، الحافلة لتعود إلى البيت بعد عمل يوم مضنٍ ومرهق، وهناك داخل الحافلة وجدت مقعدا فارغا، فجلست فيه، ولكن بعد قليل دخل ركاب آخرون، وهنا وقف أمامها رجل متوقعا أن تقوم هي لتعطيه مكانها، عكسا للعادة والأعراف في كل مكان في العالم من أن الرجل هو الذي يقوم للمرأة، ولكن في هذه الحالة، كان الرجل يتوقع العكس، لسبب بسيط فقد كان رجلاً أبيض وكانت روزا باركس امرأة سوداء، وكان هذا هو القانون في الخمسينيات في هذه المنطقة وغيرها من المناطق الجنوبية، على السود أن يتخلوا عن مقاعدهم للبيض!! وعليهم الدفع من الباب الأمامي ثم التراجع والدخول إلى الحافلة من الباب الخلفي!! وكثيرا ما كان سائقو الحافلات يقفلون الباب ويتركون الركاب السود على حافة الطريق بعد أن يكونوا دفعوا.

في تلك الأمسية كان السيل قد بلغ الزبى عند السيدة باركس فقررت أن تعمل شيئا بسيطا للغاية وهو أن لا تقوم للرجل الأبيض، فقط قررت أن ترفض الخضوع لهذا القانون العنصري الجائر!!



وهاج الناس وماجوا وتوقف سائق الحافلة، ولكن روزا رفضت التحرك من مقعدها، لقد كانت مصرة على العصيان المدني وبكل هدوء ومدنية أيضا وصلت بعد دقائق الشرطة!!

وألقت القبض عليها لخرقها قانون الولاية!!

روزا باركس كانت مستعدة لكل شيء ولقد ذكرت ذلك في كتابها القوة الهادئة الذي أصدرته بعد انتهاء كل شيء: "ظللت أفكر بأمي وبأجدادي وكيف كانوا أقوياء، وكنت أدرك إمكانيات الإهانة، ولكني أيضا شعرت أني أعطيت فرصة لعمل شيء أتوقعه من الآخرين" لقد استمرت محاكمة روزا باركس 381 يوماً وانتشرت أخبار عصيانها المدني في كل مكان، وقاطع السود المواصلات وصعود الحافلات مدة سنة كاملة وخلالها بدأت حركة الحريات المدنية للسود.

اشتعلت الشوارع بالغضب والعصيان المدني، وفي النهاية قررت المحكمة أن قانون آلباما في إعطاء الأولوية للركاب البيض ضد الدستور الأمريكي، كان خاطئاً، وكان هذا حدثاً مهماً بعد أن قررت امرأة أن تنتصر لكرامتها وبعد أن اشتعل البلد ودخل مرحلة اضطر فيها أن يراجع القوانين التي تعامل السود كمواطنين من الدرجة الثالثة بعد كلابهم التي كانت ترافقهم حيثما حلوا.

روزا أصبحت في الثامنة والثمانين من عمرها عندما بيعت الحافلة التي تفخر بها أمريكا إلى المتحف، لقد قررت أن تنتصر

لأنهـا بدأت المواجـهة بقلب تعمـره الشـجاعـة والإيمان بحـقـهـا في الكرامة(1).

رضيـة:

وأنا في بلاد الهند أخذتني رجفة الخوف إلى متاهات بعيدة، خـفت حـقـيـقـة إذ إنني لـم أسـتطـع أن أنسى تلك المرأة الجـمـيلة الملفوفة بـأثواب الحرير وهي توضع مع زوجها في القبـر أو تحـرق مع جـثـمـان زوجهـا الذي انتهت حيـاته من على وجـه الأرض، ظل الخوف يلاحقني من ذكريات حرق المرأة مع جثمان زوجها أو قبرها معه حسب الملة التي يتبعها قومها، وظللت أهرب من هذه الذكريات أزمـانا طويلة، وفي يوم غـيـر كل الأيام رأيت أشـعـة تضيء أجـزاء كبيرة من تلك القارة التي كنا نطلق عليها أرض الهند والسند، دخل الإسلام هناك وغير كثيراً من الأمور والعادات.

لقـد حكمت المرأة هناك بتـفـوق ظاهر ليس فـيـه شك وقـد يستـغـرب ذلك أخـونا من جنوب الأرض إن هيئ له قـراءة ذلك لأنه مع الأسف لم يشأ الدخول في مغارات التاريخ، ولو دخل متأنيا غير هيّـاب لتاريخ تلك القارة غير البعيدة والممتـزجة بكل الحضـارات لوجد أن هناك الكثير مما سوف يصيبه بالذهول من أعمال المرأة التي سخرت ما يظنونه ضعفا إلى قوة وعمق في الذكاء، لقد تولت السلطانة رضيـة حكم دلهي سنوات عديدة وذلك في 1236م لأنهـا

(1) مقـالة للدكتور خـالص جلبي في جـريـدة الشـرق الأوسـط الخميـس 2005/11/17م.



وقفت مع الشعب مطالبة بالعدالة، ورافضة للظلم الذي كان يرتكبه السلطان، وهو بالمناسبة شقيقها ركن الدين، الذي قتل أخاه وأخاها الشقيق معز الدين، ليستولي على الحكم الذي لم يشأ والده أن يتولى الحكم بعده هو أو أخوه، وعندما ضغط عليه من قبل الشعب لمعرفة السبب، قال هذا الملك بكل بساطة " أولادي غير قادرين على إدارة شؤون البلاد وابنتي رضية هي الجديرة بالحكم بعدي[1].

كان هذا الوالد واسمه السلطان ايلتوتمش خير دعاية للإسلام في بلاد الهند، لقد ارتقى هذا الرجل للحكم بفضل حماسه واندفاعه لرفع راية الإسلام في بلاد الهند، وهو الذي كان عبدا مملوكا للسلطان قطب الدين إيبك والذي أعجب به وبكفاحه في دلهي زوجه بابنته وبعد وفاة إيبك أعلن حكمه على دلهي وكان من أعظم الملوك الأرقاء الذين أسسوا السلطة الإسلامية في الهند.

نعود للقول إن الرجال الذين لا يخافون من المرأة هم الأقوياء، ولو تتبعنا ما نلمسه في حياتنا وفي وقائع التاريخ لوجدنا الكثير من الشواهد وايلتوتمش هذا واحد منهم، فقد كان قويا مخلصاً، لقد كون لنفسه سلطانا وبقي مخلصا للخليفة في بغداد، ولم يشأ أن يبعثر الدولة الإسلامية بفعل الأنانية التي دائما تطغى بين الحكام، لقد سك هذا الحاكم العملة باسم "ناصر أمير المؤمنين" إنه مؤمن بقوته فاعترف بولائه للخليفة وأعلن ابنته ولية للعهد، لقد أخلص

(1) السلطانات المنسيات فاطمة المرنيسي.

للمبدأ وتطلع للكفاءة، إنهم الأقوياء الأذكياء وذوو الرشاقة في التفكير.

سميراميس:

قاتل الله أفيال الهنود، لقد هزمت امرأة رائعة عشقت التعمير وأحبت البناء، إنها سميراميس ملكة آشور وبانية مدينة بابل، لقد أنشأت القصور وغرست البساتين الخضراء وحفرت الخلجان ومدت عليها المعابر والقناطر، لقد أنشأت هذه الملكة أعظم بناء شيده بشر، إنه هيكل بور الذي بلغ ارتفاعه 660 قدما أي إنه أعلى من الهرم المصري الأكبر، لقد ذكره المؤرخ هيرودوتس وقال إنه مربع الشكل ومساحته 400 ذراع وفي وسطه برج يرتفع نحو 600 قدم وتعلوه سبعة أبراج علو كل منها 75 قدما وفي البرج الأخير معبد فيه تمثال من ذهب، هذه الملكة التي منحت لبابل رونقها وبهاءها المأثور لم تكتف بذلك، ولكنها غزت مصر والحبشة وفلسطين وانتصرت في الغزوات ولكن الأفيال هي من وقفت في وجهها لقد حاولت خداع الأفيال بعمل صور لها ولكن الهنود عرفوا أن لا أفيال لديها فانتصروا، انهزمت الملكة سميراميس فعادت إلى وطنها حزينة مكسورة الفؤاد فقتلها ابنها تيتاس وذلك سنة 2000 قبل الميلاد ولكن الآشوريين أنزلوها منزلة عظيمة ورسموها على شكل الحمامة التي يعتقدون أن روحها انتقلت إليها!!



أليست امرأة رائعة أيها الرجل المتباهي بعلمه في السياسة؟[1].

حتشبسوت:

نعود إلى المرأة المصرية التي حكمت أربع مرات في التاريخ ويا أيها الرجل العجوز ما أكثر ما أخفيت من أسرار في حقيبتك التي ملئت بالخيبات وبالترهات، لنتوقف ثانية في أرض النيل، تميل المرأة دائما لحب البناء، لا للقتال مثل زميلها الرجل، إلا فيما ندر وهنا نجد الملكة حتشبسوت خير مثال على هذه الشهادة التي لم يستطع الرجل العجوز أن يخفيها تحت عباءته الممزقة وأعني به التاريخ الذي يميل دائما للشكل الرجولي وسنرى في آخر هذه الإضاءة كيف ستغير الملكة حتشبسوت في شكلها بناء على رغبة ليست لها، بل رغبة رجالية قاهرة حتى للملكات، اعتلت الملكة حتشبسوت في سنة 1522 ق.م العرش لتكون شريكة لوالدها الملك تحتمس الأول، فقد زوجها والدها من أخيها تحتمس الثالث ليكونا معا في حكم مصر بعده، ولكن حتشبسوت نحت أخاها تحتمس الثالث وتولت الحكم وحدها، وخلا لها الجو لتقوم بالإصلاحات الداخلية التي رغبتها، لقد وطدت دعائم الأمن بدون استبداد، وفتحت أسواقا لتجارة مصر ونشطت الزراعة والصناعة، والأهم من هذا، كان البناء، وهو الذي تجيده المرأة، لقد عملت على تجميل الكرنك، فأقامت فيها مسلتين كبيرتين جميلتين وشيدت الهيكل

---

(1) إن سميراميس كانت ملكة أسطورية والحقيقة أن اسمها سمورامات وأنها حكمت ثلاث سنوات فقط وأنها كانت قائدة باسلة ومهندسة بارعة وحاكمة محنكة وأن الآشوريين قد أنزلوها منزلة رائعة وجعلوها من آلهتهم: ول ديورانت المجلد الأول صفحة: 266.

الفخم وأصلحت ما خربه ملوك الهكسوس من الهياكل القديمة، نعود إلى ما أجبر به المجتمع الرجولي المرأة حتشبسوت، لقد أرادت إرضاء المجتمع باختراع سيرة نصت على أن الإله أمون نزل على أمها أحمسي على شكل فيض من النور والعطر فأحسنت هذه الأم استقباله فلما خرج من عندها أعلن أن تحتمس ستلد ابنة تشع على الأرض كل ما يتصف به الإله من قوة وبسالة[1].

وقد رسمت حتشبسوت نفسها على الهياكل والآثار في صورة محارب ملتح من غير ثديين وكانت تلبس أمام شعبها ملابس الرجال!!

مسكينة المرأة حتى الملكات كن خائفات من الرجال وهن اللائي أضأن التاريخ!!.

أيها التاريخ العجوز الكاذب، أين ستذهب من نفسك وأنت تجبر المرأة على الاختفاء أو تغيير شكلها وهي تضيء حروفك القديمة التي علاها الغبار؟

أنا لن أبقى أمام حائطك أبكي وأندب، بل إني امتطيت وسوف أمتطي الأشعة الآتية من خلال الغيوم حاملة قلمي الصغير الذي يساعدني على الحفر في صخر هذا الحائط، المبني بسواعد بنيت من حليب أمي حواء، لم تندم أمي حواء في يوم من الأيام، فهي تظل تبني وتعطي، تظل تبني حتى تتسلم ابنتها منها المهمة

(1) ول ديوانت قصة الحضارة المجلد الأول، الكتاب الأول صفحة: 77.



التي لا تملها أبدا، بل تظل تعطي الطفل حتى يكبر، لا تفرق بين ذكر وأنثى تسارع دائما في بذر الحب ونشره فماذا تحصد هذه الجميلة؟

وعودة:

ذكاء المرأة دائما يشق لها الطريق رغم القامات الخشبية التي تأبى أن ترى ذلك، ولكن هذا الذكاء الأنثوي يتسلل مثل النباتات الصغيرة التي تبحث عن ضوء الشمس لتصبح أشجارا وورودا بين أخشاب الغابة.

لا، لن أكتب أشعارا في رقتهن فمنهن من نافس الرجال في قسوتهن وجبروتهن وهنا أيضا لن أناقش القسوة والجبروت، فرحلتي اللولبية لا تمنحني وقتا كي أفتح متاحفها المليئة بكل ما يخيف ويحزن، فالحاكمات مثلما هم الحكام كل لديه متحفه، إلا من رحم الله.

يا الله أسألك الرحمة والعون، إني امرأة تعشق الرحيل في ملكوتك، وقد وضعت فيه من المخلوقات ما لا يخطر على بال بشر، وضعت فيه الأقوياء، ووضعت الضعفاء، ووضعت الخونة والأوفياء، ووضعت السعداء والأشقياء بعملهم ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴾[1].

---

(1) سورة النساء آية: 124.

الحمد لله ها هي المرأة بأمر الله إذا عملت عملا طيبا يدخلها الله الجنة، لا يهمني بعد ذلك شيء..

لا يهمني أيها الرجل المعترض أن أعمل بالسياسة أو أن أعمل بشيء آخر يختلف، العمل عمل والكل سواء، هنا فقط شيء يهمني، إنه المعرفة، فالمعرفة قوة والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، لهذا سوف أعمل، وعلي أن أعرف، ولن أدخر جهدا حتى أعرف ويعرف غيري كل ما يتصل بالحقيقة، قد أنسى شيئا وقد تغيب عني أشياء ولكني سوف أظل أبحث عنها ما حييت، أسأل الله أن ينير بصيرتي ويعينني على العودة كلما أظلم الطريق الذي تسير رحلتي فيه.

مني شِختو:

قبل أن نصعد إلى قمم آسيا أو نعود إلى صقيع أوربا لنتريث قليلا في هذا الوادي الخصيب ونقف هنا في أرض السودان الدافئة في مملكة مروي (900) ق.م لنرى ماذا فعلت الملكة (مني شِختو) لقد تنوعت نشاطات هذه الملكة وعلا دورها في كافة المواقع الأثرية المكتشفة والتي تعرضت للهدم والتدمير من قبل الطبيب الإيطالي (فرليني) وذلك في عام 1834م وهو يبحث عن كنوز ملوك مروي التي نهب منها الكثير وباعها للمتاحف الأوربية![1].

(1) نساء حكمن السودان قديماً: نساء وملكات مملكة مروي: صباح عمر الصادق.



نعود للملكة مني شِختو لقد وضع في سجلاتها أعظم أعمالها الحربية وهو انتصارها على الجيش الروماني عند أسوان وقد غنمت منهم رأس الإمبراطور أغسطس والذي كان الجنود الرومان يحملونه معهم أثناء حروبهم!!

خلدت هذا الانتصار الملكة (مني شِختو) بإقامة معبد لها داخل مدينة مروي فوضعت رأس الإمبراطور تحت سلالم المعبد عند موطئ قدمها أثناء صعودها على درج المعبد، "طرائف الكبرياء أليس كذلك"؟

هذا الرأس المصنوع من البرونز للإمبراطور وجد مكانه في المعبد أثناء التنقيب في آثار ذلك الموقع من قبل (فارستانج) في عام 1910 ونقل الرأس إلى المتحف البريطاني!!.

شنكد خِتُو:

قبل الملكة مني شِختُو كانت الملكة شنكد ختو وهي أول امرأة تصل إلى عرش مروي، ذلك في العام 165 - 145 ق.م وقد شيد لها معبد بالنقعة والذي يقع شرق معبد آمون على سطح الجبل وعليه وجد اسمها باللغة الهيروغليفية كما وجد لها مشهد بارز من الحجر الرملي داخل هرمها بالمقبرة الملكية ولها أثر آخر وهي تضع تاجا يمثل العقرب وقد جلست على العرش الذي اتخذ شكل الأسد وتحمل لواء بيمينها وسعفة النخيل بيسارها، تلك هي النخيل دائما رمز للعطاء، والمرأة نخلة من إحساس مرهف، المرأة نخلة تشرق دائما في الأراضي الخصبة.

مملكة مروي التي أخرجت تلك الملكات كانت ازدهرت في أرض السودان واستمرت من 644 ق.م إلى 545 ب.م حكمها 45 ملكا أكثرهم ملكات ولقب الملكة في مروي كان: كنداكة[1].

انديرا غاندي:

الذاكرة المتخمة بالذكريات البعيدة، لا تهرب مني، ولا تلتصق بالزمن الذي لا يمر إلا ويأخذ مني بعض بعضي، أرحل في زمن مغرق في البعد ثم أعود، في عاصفتي اللولبية إلى زمن مازلت أراه أشعة على زجاجتي الملونة التي ترشقني من آن لآخر بحزمة من الضياء تلامس شغاف القلب أو تثير عاصفة من الدهشة والأشجان، أعلم أني رحلت وما زلت أرحل في بلاد الهند والسند ولكني أعود دائما إليها بذاكرتي، فالبلاد غنية بالبشر وغنية بالحضارة الماضية، والآنية، والآتية، لا ريب في ذلك والمؤشرات هناك تضيء العقول التي ترقب، وتلتقط، إنها تلتقط الجواهر في زمن يموج بالظواهر التي لا تخفى على عين ساهر باحث عن الجواهر، هل نبدأ بـ "إنديرا غاندي" وريثة "جواهر لال نهرو" في رئاسة حزب المؤتمر وكذلك في رئاسة مجلس الوزراء؟

أم ننتهي بها باعتبار أنها حكمت بطريقة الانتخابات العصرية، في عصر يقال لنا: إنكم تختارون، ثم نرى أن الذي يختار غيرنا،

---

(1) اللغة المروية للدكتور عبد القادر محمود عبد الله، أستاذ الآثار والمتاحف في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.



وفي عصر نعلم فيه كل شيء، ثم نجهل فيه كيف يضيع الحق الذي نعلمه يقينا؟!!.

إنديرا غاندي التي لن تنتهي الهند بنهايتها الهند انتهت جسداولكن بلدها ستظل تركض رغم ذلك في دروب الحضارة التي لا تقف عند حد، هذه المرأة هزمها ابنها الرجل الذي استغل منصب أمه للنفوذ وللصفقات، مما ألب عليها الخصوم الذين أسقطوها بعد أن استمرت في الحكم 11 عاماً في انتقام رهيب منهم، ولكن إنديرا تعود دائما، عادت تلك المرأة للحكم أقوى مما كانت، عادت مؤلفة حزبا جديدا، أطلقت عليه اسم المؤتمر الجديد، إنديرا كانت أقوى زعيم مر، على جمهورية الهند بعد زعيم الهند الشهير بمقاومته السلبية (المهتاما غاندي) ولا غرابة في ذلك، إنها امرأة لا تخاف، لهذا قتلوها في عام 1984م!!.

بنازير بوتو:

في الجهة الأخرى من شبه القارة الهندية فازت في الانتخاب مرتين"بنازير بوتو" وريثة "علي بوتو" رئيس الوزراء الباكستاني الأسبق وهي أصغر وأول رئيسة وزراء لدولة آسيوية مسلمة فازت في الانتخابات وعمرها 35 سنة، هل هناك وجه للغرابة؟

لقد قررت "بنازير بوتو" خوض الانتخابات والدفاع عن سمعة والدها الذي أعدم، وأسيء لسمعته، بعد عامين من انقلاب الجنرال ضياء الحق على حكمه.

لا غرابة إذن فكثير من الأبناء الرجال يرثون الآباء الذين يقال إنهم فازوا في الانتخاب أيضاً!!

كيف أسقطت "بنازير"؟ في المرة الأولى أسقطها الرئيس غلام إسحاق وسجن زوجها الذي يشغل وزير الاستثمارات، لقد سجن هذا الزوج على خلفية اتهامات سابقة بالفساد!!

بنازير المرأة لم تستسلم، لقد استعادت بنازير السلطة بعد ثلاث سنوات إثر فوزها في الانتخابات عام 1990 - 1993 لكن الرئيس فاروق ليغاري يقرر إسقاطها للمرة الثانية بعد تجدد الاتهامات لزوجها بالرشوة والفساد والدخول في علاقات مشبوهة في الصفقات التي تجريها الحكومة، إنه "السيد 10٪ "كما تطلق عليه الصحافة الباكستانية، مسكينة "بنازير" زوجها كان المشكلة التي لم تستطع لها حلا!!

ميجاواتي:

هناك زعيمات آسيويات أخر نلن الحكم عن طريق الوراثة السهلة ولكنهن في هذه المرة من شرق آسيا، لنذهب إلى هناك لنمر ببعض منهن، هناك ميجاواتي ابنة الزعيم الاندونيسي "سوكارنو" لقد قالت إنها ترى أباها في المنام وإن هناك حكاية قديمة بأن "امرأة سوف تحكم إندونيسيا بعد عام ألفين وإن العدل والسلام سوف يسودان" إيحاء للعامة ليس إلا وهنا نتكلم عن الوراثة، ولا نخجل إلا قليلا إذ لا غرابة في الوراثة حتى في السياسة فالكل يمارسها![1]

(1) مصادر صحفية متعددة.



جلوريا ماكبغال أرويو:

لقد صعدت جلوريا ماكبغال رئيسة للفلبين بعد ثورة شعبية عارمة على الرئيس أسترادا كوريثة لذكرى والدها الرئيس السابق ديسدادوماكبغال الذي حكم بلادهما بين عام 1961 و1965م وما خاب ظن الشعب الذي اختارها، لقد ظهرت امرأة أخرى تختلف، سجلت موقفا لا ينساه الإنسان، سمعت تلك المرأة صوت أسير ينادي، فنهضت من حضن الوحش الذي يحيط بها غير آبهة بصرخاته المهددة المتوعدة، في لفتة إنسانية عالية الهمة ضحت رئيسة الفلبين بعلاقتها مع الرئيس الأمريكي المهتاج المتوعد، وسحبت جنودها من العراق الذي ملأه جورج بوش الصغير بجنوده وجنود آخرين مرتزقة أتوا لنيل الغنائم فسقطوا بين أسير وجريح، الرئيسة أوريو سمعت صوت الضمير في صوت الأسير، الذي أسرته المقاومة العراقية.

إن إنسانا من شعبها أغلى من مليارات يلوح بها بوش مبللة بدموع أم ثكلى، لا المليارات ولا التهديدات هزت فروسية امرأة أرادت الانتصار للإنسانية، صوت إنسان أسير فقير كان أعلى من بوق بوش المتعطش للدماء، أعلى من أبواق أعوانه في أستراليا وأوروبا، إنها امرأة سياستها رضا شعبها، لهذا فقد سحبت جنودها من العراق ثمناً باهظاً لحياة الأسير الفقير الذي أطلق سراحه في يوم 20 يوليو 2004 إنه يوم تاريخي يا جلوريا[1].

(1) صور تلفزيونية معبرة.

إيفيتا الشفافة:

في الحياة الحديثة تتميز إيفيتا الشفافة، لقد ولدت تلك المرأة في البؤس المركب، أعني المادي والمعنوي في 7 مايو 1919 ولدت الطفلة إيفيتا لرجل من ملاك الأراضي، اشترى والدتها ببعض الخدمات التي قدمها لها ثم تركها وعاد لزوجته تاركا لها الفقر والمذلة، وقد كافحت تلك الوالدة التعيسة لتجنب أولادها الغرق في الفقر والتعاسة، خاطت الأم الثياب بواسطة مكينة ملكتها بعد أن تخلى عنها الإقطاعي دوارتي في بيت مكون من غرفة واحدة في لوتوكروس قريبا من بيونس إيريس بالأرجنتين وأدخلت أولادها المدارس في مجتمع ينوء بالفقر نعود إلى الطفلة إيفا التي كان الحظ معها ساخنا مثل سخونة الزيت التي قيل إنه سبب اللون الشفاف الذي ميز بشرة وجهها عندما رش وجهها بسخونته تاركا طبقة سوداء سقطت بعد أسابيع عديدة مخلفة تحتها بشرة نقية شفافة، أجادت إلقاء الشعر في المدرسة، وعندما رحلت إلى بيونس إيرس عملت في الإذاعة وكان صوتها قويا مؤثرا، وعند حدوث الزلزال العنيف الذي وقع في منطقة سان خوان قرر فنانو الإذاعة إقامة حفل خيري لجمع التبرعات، كان من ضمن الحضور دومينجو بيرون الذي ألقى خطابا حول الظلم الذي يسببه الأغنياء للفقراء، هنا تحرك الجرح القديم يدعوها للاتحاد معهم ضده، كان هذا الرجل بيرون في الثامنة والأربعين وهي في الرابعة والعشرين كونا فريقا قويا غيرت شكلها ووقفت وراءه تدفعه إلى القمة تلقنه



كيف يتكلم وكيف يتصرف، لقد أصبح رئيسا محبوبا، قالت إفيتا: "العالم يحتوي على ما يكفي لجعل كل شخص فيه ثريا" لقد أنشأت مؤسسة إفيتا بيرون التي كانت مخصصة لمساعدة الفقراء، كانت تمنحهم الأدوية والزيت والسكر بل حتى هدايا العيد، لقد أحب الشعب الأرجنتيني إفيتا بيرون التي قامت ببناء المدارس والمستشفيات ومراكز الترفيه على أحدث الطرز مخصصة معظم خدماتها للفقراء، لقد أراد الشعب الأرجنتيني أن يكافئ إفيتا بتعيينها نائبة للرئيس، فتردد خوان بيرون لشعوره أن زوجته صارت أحب إلى شعبه منه مما حز في نفسها وأصابها بالحزن، لقد قالت في حديث للإذاعة: أنا لا أملك إلا طموحا واحدا وهو أنه عندما يذكر التاريخ خوان بيرون يقال إن بجانبه كانت توجد سيدة وهبت نفسها لتنقل له آمال شعبه.

كانت قصيرة هذه الآمال، فقد توفيت إفيتا التي كانت مريضة في يوم 26 يوليو 1952 وهي في سن الثالثة والثلاثين[1].

ميلينا مير كوري:

ومن الخمسينيات إلى الثمانينيات ومن الأرجنتين إلى اليونان، من إيفيتا إلى ميلينا مير كوري وزيرة الثقافة اليونانية عام 1981 لقد كانت هذه الوزيرة الجميلة أول من أعاد طرح قضية استعادة الآثار العالمية المسروقة من سارقيها إبان تسلمها وزارة الثقافة وهي

(1) مصادر صحفية متعددة.

أيضاً صاحبة فكرة اختيار عاصمة ثقافية سنوية لأوربا منذ عام ١٩٨٥، لقد جعلت هذه المرأة من وزارتها التي لم تكن ذات أهمية وزارة تموج بالحياة التي تحرك السياسة والأدمغة في كل اتجاه، قوة هذه المرأة حمت حتى الرجال الذين كانوا بقربها، فحين كان رئيس الوزراء اليوناني أندرياس باباندريو يتعرض لأقسى حملة أخلاقية كانت تثار بسبب علاقته بمضيفة الطيران التي أصبحت فيما بعد زوجة له تصدت لتلك الحملة ببسالة بلاغية أخجلت اليونانيين بلغة يفهمونها جيدا، لقد قالت لهم: "لماذا النفاق، ولماذا الانتقاد فأنتم تعلمون وأنا أعلم إن لكم جميعا عشيقات، فاليوناني يولد والخيانة الزوجية في دمه"(1).

صعقتهم "ميلينا مير كوري" فسكت الكلام، هل انتهت "ميلينا مير كوري"؟

لا، لقد سحب وزير داخلية الزمرة العسكرية الحاكمة آن ذاك جنسيتها، ولكنها لم تجزع للأمر بل إنها قالت: "هذا ا يغير من الأمر شيئا فقد ولدتُ إغريقية وإغريقية أموت، أما هو فقد جاء إلى هذه الدنيا فاشيستيا وسوف يرحل فاشيستيا أيضاً".

ورحل ذلك الوزير الفاشيستي الذي لا يكاد أحد يتذكر الآن اسمه، كما رحل الفاشيست جميعا وبقي ذكر ميلينا مير كوري ملء السمع والبصر رغم غيابها عن مسرح السياسة الحاكمة(2).

---

(1) محيي الدين اللاذقاني الأنثى مصباح الكون صفحة: 294.

(2) الأنثى مصباح الكون: محيي اللاذقاني.



دوران إلى بلاد الصقيع:

هنا في دورتي اللولبية السريعة أجد نفسي في الصقيع مرة أخرى في روسيا، في بلاد الصقيع وفيها لا يخفى أبدا، دفء المرأة،

ولا جبروتها أيضا، فلها هناك مقام ولها هناك مقال.

في روسيا وعلى الرغم من كل الصقيع الذي كان ومازال يغلف الأراضي التي كانت يوما إمبراطورية عظيمة ثم أصبحت دولة عظمى ثم تهاوت ثم تفككت وتفرقت مثل حبات السبحة في يدي طفل صغير، كان للمرأة صوت يخترق الصمت الثلجي الذي يذوب تحت أنوثتها وعقلها الممعن في روح التحدي!

كاترينا الأولى:

يعشق الروس اسم كاترينا ولهم كثير من الملكات يحملن هذا الاسم، ولم أتوقف عندهن في رحلتي اللولبية، ولكن عند هذه البنت التي سميت صوفيا أوجستا فردريكا بأسماء ثلاث من عماتها ووالدها هوكرستيان أوجست كان لواء في جيش فريدريك وأمها يوهانا إليزبيث أميرة هولشتين جوتورب وعن طريق هذه الأم كانت ابنة خالة بطرس، وجدت نفسي تتوقف عندها عنوة، لقد كانت هذه البنت تشكو ألوانا من أمراض الطفولة ومنها مرض جعلها تبدو للناظرين وكأنها سوف تظل مشوهة ما بقي لها من العمر فقد تعرج ظهرها وأصبح أحد الكتفين أعلى من الآخرالأمر الذي جعلهم يضعونها في مشد لا تخلعه ليلا أو نهار حتى عاد جسمها

للاستقامة[1] تلقت تعليمها الأولي على يد كاهن لوثري أتعبته بأسئلتها الذكية وأكملت تعليمها على مدرسين فرنسيين أتقنت على يديهم اللغة الفرنسية فقرأت كورنبي وراسبوتين وموليير وهيأت لقراءة فولتير، سمعت الإمبراطورة إليزابيث بهذه الفتاة الذكية وكانت تواقة إلى فتاة لابنها بطرس تمنحه الذكاء الذي كان ينقصه، ـ لقد قال عنه سوفوليف ـ "إنه بدت عليه كل أمارات التخلف العقلي وكان أشبه بطفل كبير يلعب بالدمى ويولع بالكلاب لدرجة أنه يحتفظ بعدد منها في شقته"[2] وصلت إلى أم صوفيا دعوة للحضور معها في زيارة للبلاط الروسي ووصلت الفتاة وأمها موسكو في 9 فبراير 1744 وفي ذات المساء التقت ببطرس الذي وقع من نفسها موقعاً طيباً، وأسر لها بطرس أنه لوثري صميم، وصممت على قبول المذهب الأرثوذكسي، وتعلمت اللغة الروسية وفي 28 يونيو اجتازت صوفيا في خشوع مؤثر مراسم دخولها المذهب وأضيف إلى أسمائها إكاترينا الكسيونا ومن ثم أصبحت تدعى كاترين وفي الغد وفي الكتدرائية الكبرى "أوسبنسكي سوبور"خطبت رسميا للغرندوق بطرس وفي 21 أوغسطس 1745 تزوجت منه، أحبها بطرس ولكنه لم يقلع عن عاداته في الشراب وولعه بالكلاب، كاترينا شغلت وقتها الأول بتثقيف ذاتها الشغوفة بالعلوم وخاصة الثقافة الفرنسية وكاد زواجهما أن يصبح صراعا بين ثقافتين إضافة إلى مشكلات ولادة ولي للعهد التي كان عليها

(1) ول ديورانت المجلد الحادي والعشرون صفحة: 41.
(2) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الحادي والعشرون صفحة: 48.



إنجابه من زوجها بطرس الإمبراطور وهو الذي تم بعد عدة مرات من فقدانها لحملها وهو الذي صار الإمبراطور بولس الأول، أحدث بطرس الكثير من الإصلاحات ولكنه وجد نفسه مكروها من شعبه، كرهه الإكليروس لوثريا وكرهه الجيش خائنا لوطنه وكرهه البلاط الملكي لأن الشبهات حامت حوله بأنه ينوي تطليق كاترين والزواج من خليلته، ولكن سانت بطرسبرج وما حولها كانت تفيض بأنصار كاترين، كان من ضمن المحبين الأميرة إكاترينا رومانوفنا أخت خليلة بطرس التي كشفت عن نية بطرس خلع كاترينا وإحلال إليزافيتا فورونتسوفا مكانها على العرش، وعوملت كاترين معاملة لا تليق بها وهي المرأة الشجاعة التي أحبها من رآها، ولم يستمر صمت كاترين، ودبرت مؤامرة للتخلص من بطرس مع مربي ولدها بولس وزعيم رومانيا كريل رازومرفسكي هتمان ونيقولا كوروف رئيس الشرطة وضباط آخرين واكتشفت المؤامرة وأمر بطرس أن يقبض عليها ثم ألغي الأمر وأمرها بالاعتكاف في بيترهوف وأصدر أمراً بأن يعد الجيش نفسه للإبحار إلى الدنمارك بينما هو تفرغ لحبيبته في أورانينباوم على أن يلحق بالجيش فيما بعد، أما كاترينا فلم يكن أحبابها نائمين بل لحق بها إلكسي وأقنعها أن تعود معه إلى سانت بطرس برج وفي طريقهما توقفا عند ثكننات فوج إسماعيلوفسكي واستدعى الجنود على قرع الطبول، وناشدتهم كاترين أن ينقذوها من تهديدات الإمبراطور وأقسم الجنود على حمايتها بل وقبلوا يدها وسموها مخلصتهم لأنهم علموا أنها لن ترسلهم إلى الدنمارك، ومضت إلى كتدرائية كازن في حراسة

فوجين والأخوين أرلوف وهناك نودي بها حاكما مطلقا لروسيا ولحقت بها فرقة بريوبرازنسكي ثم انضم إلى صفوفهم حرس الخيلة، وصحبها أربعة عشر ألف جندي إلى القصر الشتوي وهناك أعلن مجمع الكنيسة، ومجلس الشيوخ رسميا خلع بطرس وتولية كاترين، وارتدت زي نقيب في حرس الخيلة، ومضت على رأس جندها إلى بيترهوف وكان بطرس ذهب في صبيحة ذلك اليوم إلى هناك ليراها، فلما علم بالثورة هرب إلى كرونستات وعرض عليه مونيش أن يذهب إلى بومرانيا ويجند جيشاً ليرده إلى العرش ولكن بطرس كان عاجزاً عن اتخاذ القرار فلما اقتربت قوات كاترين، وظل هذا الإمبراطور يوما كاملا في التماس حل وسط، و لم يجد، ثم وقع على اعتزاله العرش، قيل: لقد سمح بأن يطاح به كما يسمح طفل بأن يرسل إلى فراشه[1].

وسجن بطرس في روشا على بعد خمسة عشر ميلا من سانت بطرسبرج والتمس من كاترين أن تسمح له بالاحتفاظ بخادمه الزنجي وكلبه الصغير وكمانه وخليلته، أجيبت كل طلباته إلا الأخيرة فقد نفيت إليزافيتا فورنتسوفا إلى موسكو ثم اختفت من التاريخ إلى الأبد.

انتصرت كاترين رغم المؤامرات التي حيكت لها وعبرت سفينتها الأمواج العاتية التي تأتي من كل مكان فمجلس الشيوخ ظل كما كتبت في مذكراتها "متبلدا يصم أذنيه عن شؤون الدولة، وبلغت

(1) ول ديورانت المجلد الحادي والعشرون صفحة: 56.



كراسي التشريع درجة من الفساد والتفسخ درجة طمس المعالم"[1]، لقد استخدمت كاترينا الشجاعة والذكاء في أجواء وجدت نفسها فيها، فأحاطت نفسها بالأكفاء من الرجال، واكتسبت ولاءهم وحبهم ولكنها ألزمت نفسها وألزمتهم بالكثير من الأعمال الشاقة، لقد أمرت هذه الإمبراطورة أن تكون لجنة لصياغة قانون تحكم به، وبدأت في أغسطس عام 1767 وتألفت من 564 عضوا تنتخبهم جماعات شتى، ولم تخول اللجنة سلطة إصدار القوانين، بل تقديم المشورة للإمبراطورة عن حالة كل طبقة أو إقليم وتقديم الاقتراحات للتشريع، قالت كاترين عن هذه اللجنة: "إنها أعطتني النور والمعرفة عن جميع الإمبراطورية وأنا الآن على بينة مما يلزم وأعرف بم ينبغي أن أهتم"[2].

عشقت كاترين المعرفة وسعت إلى تعليم الشعب وعارض رجال الدين والنبلاء التوسع في التعليم الشعبي مخافة أن يفضي انتشار المعرفة بين الجماهير إلى الهرطقة والكفر يعرض النظام الاجتماعي للخطر.!!

هنا قالت: "أصغوا إلي لحظة يا أصدقائي الفلاسفة: ستكونون لطافا ظرافا إذا تفضلتم برسم خطة للشباب، من ألف باء إلى الجامعة.. ليس عندي أنا التي لم أدرس في باريس ولم أعش فيها معرفة بهذا الأمر ولا بصر به.. إنني مهتمة جدا بفكرة إنشاء

(1) قصة الحضارة ول ديورانت صفحة: 78.

(2) ديورانت قصة الحضارة صفحة: 75.

جامعة وإدارتها ومدرسة ثانوية وأخرى أولية.. وإلى أن تستجيبوا لطلبي سأنقب في الموسوعة عما أنشده، وبالتأكيد سأستخرج منها ما أنشده".

كاترين قدمت الكثير لروسيا وهنا سوف نتذكر أنها لكي تهدئ من مخاوف الشعب من التطعيم من مرض الجدري وضعت نفسها موضع التجربة وأخذته وهي في الأربعين وكانت الثانية التي يجرب عليها الطعم!!

كاترين لم تكن من هواة الحروب، فقد سحبت روسيا من حرب السنين السبع وخفضت الجيش وسعت إلى التفاوض مع تركيا لإبرام معاهدة للصلح، وثبتت صلح بطرس الثالث مع بروسيا، وأنهت حربه مع الدنمارك، ورفضت الإغراء بفتح كورلاند أو التدخل في بولندا إذ قالت: "عندي ما يكفي من البشر الذين علي إسعادهم، ولن يزيدني رفاهية ذلك الركن الصغير من أركان الأرض"[1] لقد كان اهتمامها في البناء هو الظاهر حين بدأت، فقد أقرت حرية التجارة، فعمل على بدء شق قناة بين الفولجا والنيفا لربط البلطيق ببحر قزوين، وعملت على إنشاء المصانع ولكن هناك من يهمس في الإذن الإمبراطورية بأن خارطة روسيا تنحني في خاصرتها التي يجب لها الحماية!!.

وهنا خرجت كاترين المحاربة، مونيش القائد القديم والقائد الجديد جريجوري أورلوف همسا في أذنها: "إن الوضع يكون

---

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الحادي والعشرون صفحة: 82.



معقولا اكثر لو كان البحر الأسود هو الحد الجنوبي ويكون جميلا ورائعا لو استطاعت روسيا الاستيلاء على الآستانة والتسلط على البوسفور"!![1].

وارتكب الأتراك خطأ العمرباستماعهم إلى نصيحة السفير البابوي الغي أخوية فهاجموا روسيا وأيدت فرنسا وحرضت السويد ولكنها رفضت الاشتراك!!

وهزمت تركيا وتركت القرم والبحر الأسود تتدفأ فيه سفن كاترين التي أتت من الصقيع، هنا بدأت المصالح المتضاربة الصراع فبقية الدول الأوربية رأت أن الموقف يدعو للعمل الموحد ضد كاترين حتى لا يقع البوسفور ذلك المعقل الإستراتيجي في يدها، فتصبح روسيا السيد المتسلط على كل أوربا.

هنا اجتمع الأوروبيون مع الترك في حرب طاحنة أنهكت قواد كاترين وتركت للأتراك الآستانة. تلك المرأة لم تكن سياسية فقط ولكنها تمتعت بعقل مميز فقد فاقت الكثير من عشاقها الذين تميزوا بالفلسفة والشعر والتاريخ، فقد كتبت الشعر ومذكرات تاريخية مستفيضة عن تاريخ روسيا والتمثيليات ونصوص الأوبرا وحكايات الجن ورسالة علمية عن سيبيريا بل أن خطاباتها لفولتير كانت تنافس خطاباته لها فطنة وتميزا وتتضارعها رشاقة وخفة دم، وهي التي تكتبها خلال فواصل دسائس القصر والثورات

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الحادي والعشرون صفحة: 83.

الداخلية والحروب التي غيرت خرائط الدول، كان حديثها يجعل ديدرو دائم التنبيه والاستعداد ويحرك مشاعر فولتير حد الانتشاء، "وكان على المرء في تلك اللحظات أن يرى هذا الرأس الفذ الذي هو مزاج من العبقرية والحسن"(1) هذا يكفي يا كاترينا، فالقصة طويلة ولبصمة واضحة جلية أنها تشرق من خلف الغيوم في قصيدة تركتها بين أوراقها: "كوني مؤدبة، رحيمة، منفتحة، عطوفا، متحررة العقل، ولا تدعي سمو مكانتك يمنعك من النزول في تلطف إلى صغار الناس، ووضع نفسك في موضعهم، احرصي على ألا يضعف هذا اللطف من سلطانك أو ينقص من احترامهم لك..

انبذي كل كل تصنع وافتعال، ولا تسمحي للعالم أن يلوثك إلى الحد الذي يفقدك مبادئ الشرف والفضيلة القديمة، أقسم "برب" السماء أن أطبع هذه الكلمات على صفحة قلبي"(2).

هذه المرأة أضافت لمساحة روسيا 200,000 ميل مربع وانتزعت الطبقات المتعلمة من العصور إلى الفكر الحديث في الأدب وفي الفسفة والعلوم وكانت سباقة للتسامح الديني، وقد عقد مؤرخ فرنسي مقارنة فضلها فيها على الملك الأعظم لويس الرابع عشر، وقال: إن سماحة كاترين وبهاء حكمها، وفخامة بلاطها ومنشآتها، وآثارها، وحروبها - هذا كله كان بالنسبة لروسيا بالضبط ما كأنه عصر لويس الرابع عشر بالنسبة لأوربا غير أن كاترين إذا

---

(1) قصة الحضارة ول ديورانت المجلد الحادي والعشرون صفحة: 55.

(2) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الحادي والعشرون صفحة: 72.



نظرنا إليها كفرد وجدناها أعظم من هذا الملك، ذلك أن الفرنسيين هم الذين بنوا مجد لويس، أما كاترين فهي التي بنت مجد الروس ولم يتح لها ما أتيح له ميزة حكم شعب مهذب، ولا أحيطت منذ طفولتها بشخصيات عظيمة مثقفة"[1].

وقال مؤرخ ألماني: "كان كل ما فيها "كائنا سياسياً" لا ضريب لها من جنس النساء في التاريخ الحديث، ولكنها في الوقت ذاته امرأة خالصة، وسيدة عظيمة"[2].

كلودين الكسندرين دي تنسان:

من اللاتي تركن بصمات لا تنسى في الحياة الفرنسية كلودين الكسندرين دي تنســــان، هذه المرأة التي هربت من الدير الذي أدخلها أبوها فيه ليوفر مهرها، بقيت في الدير هناك منذ كان عمرها ستة عشر عاما حتى هربت وقد بلغت من عمرها الثانية والثلاثين لتختبئ في حجرة رجل اسمه الشفالييه ديتوش وهو ضابط في المدفعية ومنه أنجبت الفيلسوف والكاتب دالمبير الذي

(1) ول ديورانت المجلد الحادي والعشرون صفحة: 106.
عند قراءتي لقولها هذا تذكرت وصية تركها الملك الفرعوني أمينمحيت لابنه قال: «عكس ذلك كانت نصيحة من ملك من ملوك الفراعنة الشرسين» اِستمع إلى ما سأقوله لك، حتى تكون ملك الأرض، وتزيد في الخير، أقسُ على جميع من هم دونك، فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبهم، ولا تقترب منهم بمفردك، ولا تملأ قلبك بالمودة لأخ، ولا تعرف صديقاً.. وإذا نمت فاحرس بنفسك قبلك لأن الإنسان لا صديق له أيام الشر. مصدر ول ديورانت المجلد الأول صفحة: 75.
(2) ذاته صفحة: 106.

أصبح أحد مؤلفي "الانسيكلوبيديا الفرنسية "[1] وسوف نعود

---

(1) لقد بدأ دنيس ديدرو الذي ولد في 5 أكتوبر 1713 في لانجرز على مسافة 38 ميلاً من ديجون ودرس بكلية لويس الأكبر اليسوعية ومنها حصل على درجة الأستاذية ولكن حياة الرهبنة لم تقنعه فقد انغمس في تجارب عديدة وقد عمل في المحاماة ومن ثم اشتغل كاتباً عند بائع كتب وفي نفس الوقت تابع دراسته في الرياضيات واللاتينية واليونانية والإنجليزية والإيطالية، ظل ديدرو يعيش على الترجمة ودخلها الضئيل وبدأ يكتب كتباً تثير الكثير الإعجاب والكثير من التفكير واستسلم إلى فتنة الفلسفة والفلاسفة وتأثر بدعوة فرانسيس بيكون في قهر الطبيعة وطريق البحث العلمي المنظم، في عام 1746 صدر كتابه أفكار فلسفية هاجم فيها أفكار الكنيسة وما دعاه إلى تسميتها هرطقات لا عقلانية وأمر برلمان باريس بإحراق الكتاب الصغير وكان ذلك بمثابة إعلان عنه فانتشر وترجم إلى الألمانية والإيطالية وارتفع اسم ديدرو وكتب بحوثاً علمية أثارت الكثير من الاهتمام وأرسل إليه فولتير الذي انطبع ذلك العصر باسمه يشيد به وطلب مقابلته وقبل لقائه له قبض على ديدرو في 23 يوليو 1749 وفي 3نوفمبر 1749 أفرج عنه وفي عام 1750 أصدر ديدرو نشرة تمهيدية عن الموسوعة مصدر ول ديورانت المجلد التاسع عشر الكتاب الخامس صفحة 40 وكانت هنالك قبل ذلك موسوعة تشامبرز وقد رؤي نشرها وتنقيحها بمساعدة ديدرو ودالمبير ولكن هذه الموسوعة لم تكن لتشمل كل ما أراده ديدرو فنحيت ورخص في العام 1748 بالبدء في الموسوعة الفرنسية التي انضم لتحريرها نخبة من المحررين منهم فولتير ودالمبير الذي سبق وتكلمنا عنه في هذا الكتاب وقد كتب المقدمة التي اعترض عليها فولتير فرد: إن مثل هذه العبارات هي أسلوب توثيقي، وما هي إلا طريق وصول أو جواز مرور إلى الحقايق التي تنشد تدعيمها.. إن الزمن سيعلم الناس كيف يميزون بين ما فكرنا فيه وما قلناه» (المصدر ذاته) وجان مارتن دي براد وهلفشيوس وجان روسو، الذي انشق عنهم فيما بعد، الموسوعة تعرضت مرة أخرى إلى ثورة القباء فأرسل الملك لويس إلى جويودي مالشرب وهو كبير مراقبي المطبوعات ووعد هذا بالتدقيق وكان متعاطفاً مع الفكر والتأليف، واتهم كريستوف دي بومنت مطران باريس الموسوعة بأنها هجوم ماكر على العقيدة الدينية وصدر قرار من مجلس الدولة يحضر بيع الموسوعة أو نشرها، ازداد انتشار الموسوعة وانضم ديكلوس وجريم ولويس دي جوكور، وفي عام 1759 ظهرت في باريس نشرة سرية تهاجم الحكومة والبرلمان والدين المسيحي وظن أنها من ناشري =



لدالمبير هذا ونقرأ رأيه في الملكة الداهية كاترين دي مديتشي لأن هذا الرأي كان من القسوة بحيث لا يستطيع أي باحث في ذلك التاريخ أو بعده أن ينساه، المهم الآن نعود إلى الكسندرين دي تنسان التي تهرب لتضع ذلك المولود على سلم كنيسة "سان جاك لرون" بباريس لتتفرغ لحياتها الخاصة ولتحقق أهدافها التي اتسعت لتشمل المسافة بين باريس وروما، كانت ترفع هذا في السلك السياسي وتخفض ذاك وعلى الرغم من كل العذابات التي تعرضت لها، لم تفقد الحس الأسري فقد سعت لأخيها حتى أصبح وزيرا في مجلس الدولة[1]، ووضعت ماريفو بدلا من فولتير لعضوية مجمع الخالدين - الأكاديمي فرانسيز - عام ١٧٤٢م[2] جمعت هذه المرأة المال واستخدمت الجمال لتكون ركنا قويا في الحياة السياسية الفرنسية وحياة روما غير البعيدة عنها، وأيضاً الحياة الثقافية، فابنها الذي أنجبته كان دالمبير الفيلسوف الذي كان أحد مؤلفي الانسيكلوبيديا الفرنسية، إذن هنا الغاية تبرر الوسيلة هكذا

= الموسوعة مما دعا ديدرو إلى الذهاب إلى مدير الشرطة وإلى محامي البرلمان وإلى مالشرب وأقسم أنه لا علاقة له بتفجير الإلحاد وصدقوه ولكنهم نصحوه بمغادرة باريس فأبى محتجا أن الهروب اعترافٌ بالذنب وحذره مالشرب من أن الشرطة ستهاجم منزله وتصادر أوراقه ومن ثم ينبغي إخفاؤها فتساءل ديدرو ولكن أين؟ فقال مالشرب: أرسلها إلي أنا فلن يأتي أحد ليفتش عنها هنا. قبضت الشرطة على ناشري النشرة المخزية وعلموا أن ديدرو فقط مسؤول عن الموسوعة التي ظلت فخر لفرنسا وكتابها.

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثامن عشر، صفحة: 36.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثامن عشر، صفحة: 36.

قال المعلم نيقولا ميكيافيللي والنساء أخوات الرجال في هذا الموضع أليس كذلك يا رجال السياسة؟!(1).

كاترين دي مديتشي:

نعود الآن" لجان دالمبير الفيلسوف ابن كلودين الكسندرين تنسان الذي وضعته أمه على سلم الكنيسة والذي وصف بلاط الملكة كاترين بأنه أفسد المجتمعات قاطبة وألعنها فقد طبقت هذه الملكة مقولة نقولا ميكافللي أن الغاية تبرر الوسيلة، فهذه المرأة التي ظلت لغزاً غامضاً، زوجوها من هنري الثاني ملك فرنسا المقبل وبقيت معه عشر سنوات عاقراً لا تنجب، ثم فجأة تلد في كل عام حتى بلغ العدد عشرة ارتقى عرش فرنسا منهم ثلاثة أمراء، وأصبحت اثنتان من بناتها ملكات، هذه المرأة شهدت انطواء أربعة عروش ملكية وظلت متماسكة تحقق مآربها في كل العروش وتفعل ما تريد بواسطة القوة الكامنة التي كان لابد أن تمارسها لدعم أبنائها الذين لم يكونوا بنفس دهائها، لقد أحبطت في بدء الحياة الزوجية والسياسية، فزوجها الملك هنري المصاب بالكآبة فضل عليها ديان دي بواتيه، ولكنها ظلت مخلصة له وللسياسة التي ورثتها عن لورنزو الفاخر والبابا ليو العاشر، لقد عملت على تثبيت الحكم في أسرتها بكل الطرق، ضربت الأسر المنافسة للحكم بعضها ببعض وهادنت الكنائس وطبقات النبلاء، كانت اللعبة السياسية خير انتقام أرادته لكرامتها المهانة كملكة من زوجها هنري

(1) قصة الحضارة ول ديورانت.



الثاني الذي فضل عليها الغانية ديان دي بواتيه، لقد ظلت هذه الملكة أم الملوك تتحكم في رجال السياسة لأنها كانت فوق الانتقام الضعيف الذي يلجأ له من يدعي القوة، كاترين دي مديتشي ضحكت على الضعفاء المنتقمين ومازالت هذه المرأة لغزا يحير، كاترين دي مديتشي سليلة لورنزو الفاخر وحفيدة البابا ليو العاشر ولدت في فلورنسة 1519م لأبوين ماتا بمرض الزهري قبل أن تتم الشهر من عمرها، زوجها عمها البابا كليمنت السابع وهي في الرابعة عشرة لهنري الثاني ملك فرنسا المقبل، ظلت عشر سنوات عاقرا ثم فجأة هل الأطفال من بطنها في كل عام طفل جديد حتى بلغوا عشرة أطفال عدا!

مات منهم ثلاثة في الطفولة وارتقى ثلاثة منهم عرش فرنسا وأصبحت اثنتان منهم ملكات من أبنائها شارل التاسع الذي تولى الملك وهو في الرابعة عشرة وكان ضعيف الشخصية وفي عهده بدأت الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، جرحها زوجها هنري في كرامتها ولكن ميكيافللي كان من معلميها ليس بذاته ولكن بمبادئه التي تطبق في كل مكان حولها وبكتابه الذي أهداه لوالدها، يقول مراقب إيطالي: "لا يتم شيء دون علمها، وقلما وجدت متسعا لتتناول طعامها، أما أخلاقها فقد سمت فوق جيلها إذ يبدو أنها كانت مخلصة لزوجها غير المخلص".

لقد كتبت تقول: "إنني بمشيئة الله لن أسمح لنفسي بأن يتحكم فيها هذا الفريق أو ذلك، لأنني أيقنت للأسف أنهم جميعا

يحـبـون الله والملك وإياي أقل مما يحـبـون مكاسـبـهم.. وإشـبـاع أطماعهم"، لقد أرخى الأساقفة العنان للمذبحة التي قضت على كثير من البروتستانت في ليل أظلم، فقد كتب الممثل البابوي في باريس إلى روما يقول: "أهنئ قداسة البابا من أعماق قلبي على أن الله جل جلاله شاء في مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيها غاية في التوفيق والنيل وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة، وفي اللحظة المناسبة حين كان كل المتمردين محبوسين في القفص"[1].

خرجت كاترين دي مديتشي منتصرة ولكن ذلك أثار الاشمئزاز في أوروبا البرتستانتية ودعا الكثير من المفكرين إلى كتابة التاريخ الدستوري وذلك لأن الملكية الغالية قامت على الانتخاب فالملك إلى عهد لويس الحادي عشر كان خاضعا لمجلس شعبي من نوع ما، والبقايا الهزيلة التي تخلفت عن هذه السلطة الانتخابية هي هذه"البرلمانات" الذليلة ومجلس الطبقات الذي طال إغفاله، وهذه السلطة منحت لتلك الهيئات بتفويض من الشعب، فالشعب وحده صاحب الحق في انتخاب الملوك وعزلهم".

إذن هل نقول إن كاترين دي مدتشي لديها سمة كامنة من القوة أخرجت ذلك العنف والصلابة بعد ضبط النفس الذي واجهت به حرمانها الأولي وخيانات زوجها، لقد وضعت تلك المرأة هويتها

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس عشر صفحة: 201.



على عصر أمتلأ بكل ماهو مخيف وعنيف ولكنها ظلت بيديها الناعمتين تحرك الخيوط كيفما تشاء رغم العواصف والأعاصير التي أقتلعت الضمائر من مبانيها المخملية؟.

المركيزة مدام دو بمبادور:

أوجين انطوانيت بواسون ابنة البقال فرنسوا بواسون صديقة الفلاسفة وأشهر امرأة في أوربا في القرن الثامن عشر، لقد تلاعبت تلك المرأة بمسرح السياسة كأعظم مخرج سينمائي في عصرنا الحاضر، لقد تولى عشيق أمها الإنفاق عليها بسخاء، بعد أن فر والدها الذي حكم عليه بالإعدام إلى هامبرج، لقد تعلمت الفتاة فن الإلقاء والغناء والرقص والتمثيل والرسم والحفر والعزف باختصار كانت الفتاة شعلة من المواهب التي أشعلت بها قلب كل من رآها ومنهم الملك لويس الخامس عشر الذي سرقت لبه وفؤاده، إلى حد أنه قال عنها: "أشد النساء فتنة في فرنسا"[1] لقد وضعها ملكة غير متوجة على فرساي التي اشتهرت بقصورها ومتاحفها والتي تبعد عن باريس 23 كيلو مترا، لقد أحاطت الحاشية بمدام "بمبادور" فراحت توزع العطايا وتعين الأشخاص في المناصب الكبرى بعد إطلاع مليكها الذي لا يرفض لها طلبا مما أوغر عليها رجال البرلمان وأيضاً رجال الكنيسة الكارهين لها أصلاً، لأنها كانت تؤيد فكرة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة أو انتزاع هذه

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الخامس عشر صفحة: 202 ـ 203.

الأمــلاك إذ كـان هو المهـرب الـوحـيـد من إفـلاس الـدولة أيضـا، ولتقريبها الفلاسفة الملحدين مثل "ديدرو" الذي نشـر مبادئ الإلحاد أو الفلسفة العقلانية (ولا عقل في هذا) وكذلك تقريبها "لفولتير" الذي تزعم حـركـة الفلسـفـة المادية والتي بسـبـبـهـا اتهم بمعـاداة الكنيسة مما أوغر عليه صدور القساوسة الذين بدورهم حـرضـوا عليه الملك لويس الخامس عشر ليصدر قرارا يمنع بموجبه دخول فولتير لفرنسا بعد أن فر هاربا وقد حـرمت الكنيسة كتبه واعتبرته مخربا للعقيدة الصحيحة وهادما لتعاليمها، لقد كره فولتير تبجح القساوسة ورفض حتى ساعاته الأخيرة أن يتقبل منهم، فعندما أتاه قسان وهو على فراش الموت كان مصيرهما الطرد فقد سأل الأول: من أرسلك؟ قال القس: الله، قال: فولتير فأرني أوراق اعتمادك، فأسقط في يد القس وهرب، أما الثاني فطلب منه أن يعترف بأنه كاثوليكي صحيح العقيدة فطرده وطلب من سكرتيره أن يكتب في وصيته أنه يموت على عبادة الله وكراهية الكهان، سبحان الله الذي علمنا بفطرته التي فطرنا عليهـا وفي قـرآنه الكريم علمنا أن لا واسطة بينه وبين عباده..

نعود إلى بمبادور التي قربت ذلك الرجل الذي توفي وعمره 84 سنة وترك 99 كتابا كان لها دور في قيام الثورة الفرنسية وتغيير العالم، لقد كانت بمبادور أكثر نساء عصرها ثقافة فقد كانت لها مكتبة ضخمة تضم 3500 مجلد، منها 738 في التاريخ[1]

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الثامن عشر الصفة: 55.



في الفلسفة ومجلدات عديدة في السياسة والقانون. ولقد كانت على الرغم من مشاغلها العديدة في مكافحة أعدائها الذين يحيطون بالملك تجد وقتا للقراءة والاهتمام بإنشاء المرافق الثقافية، في عام 1752م منحها الملك لويس الخامس عشر لقب دوقة، وكان الملك غالبا ما يتبع مشورتها في التعيينات وفي المسائل الداخلية والسياسة الخارجية وكانت تستقبل السفراء وتتحدث أحيانا باسم الملك وباسمها فتقول: "نحن سننظر في الأمر"، لقد سلم أعداؤها بسعة صدرها واطلاعها المدهش في الشئون السياسية ولباقتها في الأحاديث الدبلوماسية وإلى نظرتها الثاقبة، وقد أشارت إلى أن عجز قواد فرنسا هو أساس اضمحلالها العسكري، وفي 1750 اقترحت على لويس أن ينشئ مدرسة حربية يتلقى فيها الفنون والعلوم العسكرية أبناء الموظفين والضباط الذين قتلوا أو استنزفت قواهم في خدمة الدولة، ووافق الملك، ولكنه أبطأ في توفير الاعتمادات اللازمة للمشروع، فنقلت بمبادور إلى هذا المشروع دخلها الخاص لمدة عام ووفرت له أموالا إضافية عن طريق "يانصيب" وضريبة على لعب الورق وفتحت المدرسة في 1758 ملحقة "بقصر الانفاليد".(1)

إذن المرأة تعمل وتنظر في الأمر منذ أزمان طويلة ولكن المؤلم في الأمر أن الرجل من جنوب الأرض لم ينظر في الأمر حتى في هذا الوقت المتأخر من الوقت!!

---

(1) ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الثامن عشر صفحة 60 ـ 61.

لقد توفيت مدام بمبادور في عام 1764 في فرساي بعد أن أوصت بقصرها الباريسي إلى الملك لويس الخامس عشر الذي يشغله الآن رئيس جمهوريه فرنسا باسم الإليزيه[1].

قبل أن أغادر جادة الشانزليزيه تعبق في أنفي رائحة العطر الباريسي، لن أنسى قصة لا تنسى، فلا بد أن أقف أحيي البطلة القومية لفرنسا "جان دارك" تلك المرأة التي عشقت حرية بلادها فقاتلت الإنجليز الذين كانوا يحتلون بلادها في حرب امتدت مئة عام، لقد قادت هذه المرأة الثورة بشكل أسطوري، قاتلت حتى قبض عليها الإنجليز وأعدموها حرقا![2].

الأشجار الجميلة تقتل أحيانا واقفة:

ما زال قلبي معلقا بأرض الكنانة، سوف أعود إليها، أعود إلى مصر وأذهب معكم لنجدف في نيلها الذي يبدو هادئا بينما يحتضن الأسرار، تلك الأسرار التي تبهر الأنظار حتى وإن وضعت عليها ألف نظارة شمسية ونظارة، في الحقيقة أنا أحتاج إلى نظارة كبيرة للبحث، إلا أنني سوف أدخلها بقلبي وعقلي فقط، فمصر لم تستطع أن تتجبر على المرأة إلا قليلا، ربما لرقة طباع أهلها المتزجين بماء النيل، أو ربما لأن المرأة فيها قد امتزجت بطين النيل الصلصالي القوي البنيان، ذلك سوف أتركه للكيميائيين، عليهم معالجة ذلك فقد كان أول ملكة تصدرت في التاريخ هي

---

(1) قصة الحضارة ول ديورانت صفحة: 116.

(2) قصة الحضارة. ول ديورانت.



الملكة "حتشبسوت"، لقد اعتبر المصريون المرأة مخلوقا سامياً لا يجوز الإساءة إليه، لقد عثر في أوراق البردي التي وجدوها في جنوب مصر على وصايا كتبها حكيمهم القديم "بتاح حوتب" تقول: إذا أصبحت رجلا ذا مركز فأقم لك بيتا وأحب زوجتك فيه حبا خالصاً وأعطها كفايتها من الطعام واللباس واشتر لها العطر، وأعد لها الزيت لأن فيه شفاء أعضاء جسمها، واجعلها سعيدة ما دمت حيا فإن المرأة مرآة لزوجها ينعكس فيها ما يبذله في سبيل سعادتها، ولا تكن خشنا في بيتك فاللين يحرك قلب المرأة والغلظة تنفرها".

حقاً الغلظة تنفرها ولهذا سنقرأ شيئا بعيدا عن الغلظة ولينا يحرك القلب ويسيل المشاعر الرقيقة أنهارا، دعونا نقرأ رسالة مؤثرة جدا لقائد عسكري من قواد الفراعنة الذين أخذتهم الحروب عن زوجاتهم، قال هذا القائد المسكين يرثي زوجته بعد وفاتها قبل أن يعود إليها: "ماذا فعلت بك حتى أجد نفسي في هذه الحالة السيئة التي أنا فيها الآن؟ لقد كنت زوجتي عندما كنت في سن الشباب، وكنت عندك ولم أتخل عنك ولم أدخل إلى قلبك أي هم، وعندما كنت أرأس ضباط جيش فرعون وجنود العربات جعلتهم يحضرون ليقدموا فروض الولاء بين يديك، وقد جلبوا لك مختلف الأنواع والأشكال الجميلة لكي يضعوها أمامك، ولم أخف عنك طوال حياتك شيئا، ولم أفعل بك سوءا، ولم أخنك، وعندما مرضت بهذا المرض الذي اعتراك استشرت كبير الأطباء الذي حضر

ليعودك وقدم لك الدواء وأجاب لك كل طلب، وعندما وجب علي أن أرحل إلى الجنوب في رفقة الفرعون، كنت بأفكاري وقلبي عندك، وقضيت الشهور الثمانية دون أن أتناول أي طعام أو شراب كما يفعل الناس، وعندما عدت إلى "منف" استأذنت الفرعون وحضرت إليك، وكانت روحك قد صعدت إلى السماء قبل وصولي بلحظات، فبكيتك كثيرا مع أهلي أمام منزلي وأحضرت ملابس وأقمشة لكي يلفوا بها جسدك الطاهر، ولم أدع شيئا حسنا إلا فعلته لك".

"ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك" هذه قاعدة في السياسة علم بها الله سبحانه وتعالى عبده الطيب الرحوم محمداً صلى الله عليه وسلم ليدير بها شؤون الحياة المتغيرة، ونرى كيف تتغيرالقلوب بالمعاملة الحسنة فإذا الذي كان بعيدا عنك يأتي إليك كأنه ولي حميم وإذا الشك الذي كان يحيطك ينقلب إلى شفافية تحيط القلوب.

وتطبقها المرأة في تعاملها بالرقة وبالرحمة فإذا هي تحتوي زوجها وإذا هي تحتوي طفلها ومن حولها، والشواهد تأتي في كل حين رغم كل تلك الأحجار التي توضع على أزهارها كي لا تخرج للنور الذي نراه ينبثق في كل الأرجاء رغم التعتيم والتكميم.

هذا التعتيم هو في الحقيقة ثقافة مجتمع ليس متوائماً مع ذاته وإنما هناك استراتيجية ذكورية مستقطبة لبعض الأصوات النسائية التي تم استقطابها بعيداً مراكز الوعي والاستراتيجية الذكورية التي تقلل من إمكانيات النساء تظهر خوفها غالباً على



النساء، فالمرأة ضعيفة والمرأة لا تحسن الاختيار و.. و.. ونعود في هذه الحالة إلى نصيحة أفلاطون إلى تلاميذه في طبقة الحراس وثقافة مجتمعه والمجتمعات التي لحقته.

أفلاطون لم يكن ذا فظاظة في الظاهر ولكن هي ثقافة مجتمعه الذي حمل الأنثى كل مساوئ البشر بينما لو تمعنا في كتاب الله المنزل لوجدنا أن الأمر يختلف والمرأة تكلف مثلما يكلف الرجل، فالتكليف يشملهما الاثنين والمقدرة على الحكم وتكوين الرأي تشترك فيها المرأة والرجل فالقرآن أتى ببلقيس كامرأة تحكم بعقلانية وتفكير ناضج فاق كل مستشاريها الذين أشاروا عليها بمقاومة الملك العظيم سليمان بينما هي أرتأت التفكير العقلاني والأسلوب السياسي الهادي.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159).

إذن نعود إلى أن رقة المرأة ميزة تميزها إذ تمنحها مجالاً أرحب لممارسة السياسة والاحتواء الذي برعت فيه أسماء وأسماء ارتفعت أشجاراً تعانق السماء.

الشجرة:

شجرة الدر تلك الجميلة المثقفة التي استكان لها الملك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب وكانت جارية له ثم تزوجها بعد أن ولدت

له ابنا أسماه خليلاً، أم خليل السلطانة شجرة الدر كانت من الذين أذاقوا الصليبيين شر الهزائم، تولت الحكم وزوجها مريض يعاني سكرات الموت فلما توفاه الله جل جلاله أخفت الخبر حتى لا يكون هناك انشغال بالمهم ويترك الأهم وهو قتال من جاء يريد الاحتلال وتأديب أبناء صلاح الدين، الذي ردهم عن القدس الشريف، لقد أتى لويس التاسع ملك فرنسا وهو يحلم أن يتنزه في بحار العرب، لكن حلمه أصبح كابوسا وسجناً فكه منه ابن الملك الصالح توران شاه بعد أن استلم السلطة من زوجة أبيه "الشجرة" التي ظلت تقف مع المماليك قائدة وموجهة حتى تم النصر على الأعداء، لقد حكمت تستخدم الدهاء والحكمة فكان خطباء صلاة الجمعة على منابر مصر يدعون لها بعد الدعاء للخليفة: "اللهم واحفظ الصالحة ملكة المسلمين، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل" وضربت النقود باسمها[1].

كانت ملكة عظيمة ولكن الشر دائما له جولة، لقد اختلفت شجرة الدر مع توران شاه لأنها أخفت موت أبيه عنه في لحظة كانت أحوج إلى التلاحم والسكون ولكن لأنها السلطة الساحرة ولأنها كانت زوجة أبيه التي ظن أنها تفضل المماليك عليه، أبى ذلك الرجل إلا أن يقتلها، فحرض عليها المماليك الذين أبوا أن يقتلوا سيدة وزعيمة ولكن توران شاه عزل كل من أسهم في حمايتها وانتصر لها ومعها، لقد قتلها ذلك الذي لم يستطع أن يكون لها ابنا

(1) عمر رضا كحالة أعلام النساء صفحة: 288.



أو زعيما، لقد كانت تلك المرأة تستحق أن يسجل التاريخ اسمها بأحرف من نور.

هكذا الأشجار الجميلة، فمن جارية مملوكة إلى زعيمة تضرب النقود باسمها وتسير الجيوش بأوامرها.

دائما هي الأشجار جميلة ولكنهم يقتلونها واقفة![1]

السهام لمن توجه؟

يقول صمويل جنسن: وليس نحن من يقول فنحن نعيد كل شيء إلى خالقه فنقول: وهب الله، "سيدي لقد وهبت الطبيعة المرأة من القوة ما لا تستطيع الشرائع أن تزيد عليه شيئا " إذن هناك إقرار بأنها منحت القوة ـ حمل الجنين ـ الذكاء والحيلة ـ إن كيدهن عظيم ـ الصبر ـ إرضاع الطفل والعناية به ـ إذن وهبت المرأة القوة وبذلك معرفة وإقرار عرّفه الله وأقره العارفون، لكن العارفين يحددونه أيديلوجيا بما يتواءم ورغبات المتحدث فإذا أرادها قوية فيجب أن تكون قوية "على الأقل جسمانيا" وأن أرادها عكس ذلك فيجب أن تكون ضعيفةً خاضعة!!

أن موقع المرأة المحوري من الحياة الاجتماعية والسياسية شيء غير قابل للإخفاء، فمن ذا يخفي نخلة في أحشائه؟

(1) أعلام النساء، لعمر رضا كحالة.

وهنا أقرن دائما المرأة بالنخلة، فبينهما تشابه كبير فالنخلة عميقة الجذور وكذلك المرأة، والنخلة جميلة الشكل وكذلك المرأة، والمرأة كثيرة العطاء وكذلك النخلة.

يكتب دائما الرجل هنا في العالم الإسلامي مثله مثل الآخرين عن المرأة ويسهب فمكانتها شغله الشاغل وإيجابا يقول عنها (هكذا يقول عن نفسه) فنجده يبدأ بأن الإسلام كرم المرأة (وهذا حق) وأنه رفع مكانتها عما كانت تعانيه من الاحتقار والتهميش، عند الشعوب القديمة، ثم يأتي على ما يحصل لها من انحلال في بلاد الغرب وكيف أن الإسلام، رفعها، وكرمها، هكذا يستمر، المقال، والبحث، والمحاضرة، يقال هذا بشكل ممل، لا تجديد، ولا إضافة، حتى أصبحت هذه البحوث مثل الطعام، الذي تجبر على أكله بعد أن تكون قد أكلت حتى التخمة!!.

وفي الواقع التطبيقي يتصدى هؤلاء الرجال لوجود المرأة العملي، في الأندية الفكرية، وفي مراكز القرار!!

فهناك محاذير: إنها الفاتنة، هي المحرك للفتنة،

إنها ذات التفكير القاصر الذي يدور حول ذاتها،

إنها معظم الأشياء التي تضر الرجل البريء!!

إذن هناك إصرار على التفكير الأحادي الذي يشكل في الواقع إفلاسا لأي مجتمع يريد النهوض، إن هناك نفاقا وكذبا يطرح حاضرا وكتبا اصفّر وجهها خجلا عبر السنين، يقولون وهم كاذبون



إن المرأة مارست حقوقها المتاحة لها في كل الشرائع السماوية، كذب هذا وكذب كبير، لقد سلبت المرأة كثيرا من حقوقها بطرق متعددة فتارة باسم الدين والحفاظ على الأخلاق، وتارة أخرى باسم سد الذرائع التي هي ذرائع في ممارسة التضليل وسلب الثقة، من ذات الإنسان الذي هو في هذه الحالة الأنثى، التي خلقها الله بشرا سويا، لها الحساب مثلما له، ولها الثواب مثلما له، لم يفرق الله جل جلاله في تكليف المخلوقين ذكراً وأنثى بالعمل.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[1].

إذن ها هو الخالق، وهو الحق الذي يحق الحق ويزهق الباطل، قد أثبت للمرأة الولاية، مثلما أثبتها للرجل، لقد كان الله تعالى بها رحيما عالما وواثقا من بشريتها التي تقبل الخطأ وتقبل الصواب، تماما مثل الرجل، ولكن هذا الرجل أبى إلا أن يسلبها بعض الذي لها ويضيف لها أشياء فوق طاقتها، بحجج تغوص في هواه، وهواه لا يقف به عند الأمور التي تقرر لها حقها الثابت ولأننا نريد الحق الثابت الذي منح لنا من لدن حكيم عليم، دعونا نقف هنا سويا أمام مفردة (يأمرون) لقد جمع الله تعالى في هذه المفردة بين الرجل والمرأة، إذن هن "يأمرن"، المرأة تأمر بالمعروف والمرأة تنهى عن

---

(1) سورة التوبة الآية: 71.

المنكر والرجل كذلك، وهي ولية للرجل مثلما هو ولي لها وهي لباس له مثلما هو لباس لها، أنا لا أفسر القرآن ولست أدعي أني من مفسريه ولكني أعلم أن الله تعالى خلقنا سويا ذكرا وأنثى وجعلنا نعيش على هذه الأرض لنعمرها، بيننا المحبة والنصرة لبعضنا، هل أخطأت؟

أعلم أن هناك سهاما ستوجه لي من الذين يظنون أنهم وحدهم حماة الإسلام، والإسلام بريء مما يُفعل باسمه هو بريء بريء بريء وأنا بريئة أيضا إن شاء الله إلا من الخطأ غير المقصود ولكن السهام دائما ليست دقيقة أعوذ بالله من أن تصيب الأبرياء، وأما الصواريخ فالعالم الإسلامي بعد لا يستطيع توجيهها وأقولها والله وكلي أسف فالقوة جميلة حتى وإن كانت مخيفة، تذكرت الخوف، لماذا تخاف المرأة من حكم المرأة عليها؟

في كثير من المرات نرى المرأة المندوبة للعطاء تقسو على من حولها.. لماذا؟

إنه الخوف!!

هي المسئولة وتخاف، كيف؟

إنه الموروث والتربية، إنه التجمع الذكوري، أراد ذلك، وطبقه حتى بواسطة المرأة ذاتها!!

لا مجال للإنكار، فالخوف فيروس يصيب من يضعف من النساء كما أصاب الكثير من الذين يحملون الجينات الذكورية



الكاملة النمو، إذن ليس محالا أن تتخلى الشجاعة عن المرأة في أوقات تتحدُ فيه الذكورة وتتشرذم فيه النساء..

في كتاب أصل الفروق بين الجنسين، لعالمة النفس الألمانية الدكتورة أورزولا شوي ذكرت تجارب تثبت أن المرأة تجبر على أن تكون غير ذاتها التي خلقها الله!!

ساقت هذه العالمة كثيرا من التجارب والممارسات التي تتعرض لها المرأة منذ حملها جنينا حتى سلبها أهليتها بعد أن تتقدم في العمر فالأم تُهيأ لاستقبال الولد الجنين بكثير من الضغوط، جميل أنه ولد، وآه، إنها بنت، يأتي المولود، وهنا يبدأ حقن الرغبات!!

تقول أورزولا شوي في كتابها أصل الفروق بين الجنسين: "يبدأ فرض الهوية الجنسانية في رحم الأم، فإذا انقلب الجنين بحيوية زائدة قيل سيكون صبيا وكذلك في الرضاعة فعلى البنات الصغيرات أن يتناولن الحليب أسرع من الصبيان وفي المتوسط يُفطمن أبكر من الصبيان بثلاثة أشهر"[1]!!

إنها تؤكد أن هذا الكلام ليس جزافا بل إنه حقيقة مختبرة علميا ويحدث بتأثيرات لا شعورية لكنها موجهة في المحصلة الأولى، تقول هذه العالمة أيضاً في كتابها الآنف الذكر: "إن البنات يلقين إهمالا شديدا في جميع المجالات المهمة، إنهن يلقين تشجيعا أقل وإن وجد التشجيع فسيكون موجها نحو (أنوثتهن) القادمة ليس

(1) أورزولا شوي، أصل الفروق صفحة: 13.

إلا، وهذا ما يخلف أضرارا خطيرة وتشويهات، ذلك لأن الطفل لا يتطور بنفسه أي من ذاته بل يعتمد على التشجيع والتحفيز"[1].

في هذا الكتاب أوردت المؤلفة تجربة لها مغزى دلالي كبير أوردها عالما الجنس الأمريكيان ماني / ايرهارد في كتابهما " ذكري ـ أنثوي " عن توأمين ذكرين أحدهما حصلت له عاهة اثناء الختان فنصح الأطباء أهله أن يربوا هذا الصبي كبنت وهكذا، لبس هذا الولد أو البنت التي سوف تكون بنتاً وعمره 17 شهرا لأول مرة لباس البنات وغيرت تسريحتها وتغير اسمها وبعد ذلك بأربعة أشهر أجري لها تصحيح جراحي أو عملية تحويلية بحيث تبدو كأنثى ومن ثم معالجتها بالهرمونات الأنثوية المهم حسمت الأم أمرها بتربية هذا المخلوق الصغير كبنت، يقول:" ماني" عندما رأيناها بعد سنة كانت راغبة بالفساتين أكثر من البناطيل وكانت معتزة بشعرها الطويل، ومن يهتم لهندامه يهتم أيضا بالترتيب، هكذا، فعندما أصبح عمر البنت أربع سنوات ونصفا تحدثت الأم عن أن "الابنة أكثر ترتيبا من الابن، وأنها بعكسه لا تريد أن تلوث نفسها، إنها تصير أكثر فأكثر ترتيبا"!![2] المهم وصلت القصة إلى أن المخلوق الذكر أصبح أنثى بالتربية ومسالمة مثل حمامة!!

هل نعود إلى جان جاك روسو وفلسفته في التربية التي يريد بها أن يكون مجتمعا رجاليا متفوقا ولتأكيد ما قاله العلماء في السابق من هذه الأسطر؟

(1) أصل الفروق أرزولا شوي صفحة: 13.

(2) أصل الفروق بين الجنسين أورزولا شوي صفحة: 12.



يقول: "كل شيء ينطوي على تعميم للأفكار ليس داخل نطاق المرأة، فدراستها ينبغي أن تهتم بالأمور العملية، فمهمتهن تطبيق المبادئ التي يكتشفها الرجل، ويترك لهن أن يعملن الملاحظات التي تؤدي بالرجل إلى اكتشاف هذه المبادئ"[1].

إذن هل نقول إن بالتربية نستطيع أن نغير الموازين؟

للتأكيد على هذا نأتي باليقين الذي لا ينطق عن الهوى، يقول رسول الله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" إذن هناك من يقولبها أي يضعها في قالب الدعة والاستكانة فإن هي خرجت عن هذا النطاق فالويل لها، فالاتهامات جاهزة ومجانية فإن أبدت تصميماً وقوة قالوا: مسترجلة، وإن اتسمت هذه المرأة بالتفهم والحنان قالوا: ضعيفة يخرج الأمر من يدها!!

خولة:

وتخرج المرأة الشجاعة دائما من بين الحطام فلا أحد يدعوها للخروج، ولكنها تخرج حينما تجد الحطام يخنقها، تذكرت خولة بنت الأزور الأسدي[2] عندما تصفحت كتاب الدكتورة أورزولا شوي أصل الفروق بين الجنسين وهي تؤكد "أن تأثير وسائل الإعلام هو في الحقيقة غير مباشر ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال

(1) إيميل، جان جاك روسو.
(2) خير الدين الزركلي الأعلام الجزء الثاني صفحة: 325.

التهوين من شأنه ومفعوله "لقد حمدت الله أن تلك البطلة العربية المسلمة لم يكن تأثير الإعلام عليها قد أغلق حلقاته، مثلما هو واقع الآن على صغيراتنا اللاتي يقرأن الكتب فلا يجدن إلا امرأة مسلوبة الإرادة أو بنتا يقودها كلبها لأنه ذكر، تقول الدكتورة أورزولا شوي في إيرادها لدراسة قامت بها الدكتورة ليونوره فايتسمان للكتب المصورة للأطفال في الولايات المتحدة" : لا تتواجد النساء تقريبا في الكتب المصورة أي إن تمثيلهن أقل بكثير من العناوين والأدوار المركزية..

فالأغلبية المطلقة من الكتب تدور حول الصبيان والرجال حتى الحيوانات مذكرة وإذا ما ظهرت النساء فإنهن يلعبن دورا تافها في الواقع يمثل الجنس الأنثوي واحدا وخمسين في المائة من السكان، أي النصف تقريبا وتظهر صورة واحدة للإناث مقابل إحدى عشرة صورة للذكور وإذا أخذت صور الحيوانات في الاعتبار، وهي ذات تماثل جنساني باد للعيان، عندئذ يقابل كل أنثى 95 ذكرا"!!

وتوجز فايتسمان كثيرا من النقاط التي رغم إيجازها لها، نراها تملأ صفحات بالعجب، وسوف أورد ما ذكرني ببطلتنا خولة بنت الأزور منها.

تقول فايتسمان في دراستها: "تُصور البنات منعزلات وعلى النقيض من الصبيان الذين يظهرون وهم يلعبون لعبا رفاقيا أو يقومون بالمغامرات وإذا كانت القصص تدور مثلا حول التحرير والإنقاذ وكثيرا ما تكون حول ذلك، فإنه يجري تصوير



الصبيان حصرا، أما الضحية المرتجفة فهي طبعا أنثى في الغالب، فالبنات الصغيرات مخلوقات ضعيفة، يجب إنقاذها (مثل الحيوانات الصغيرة) حتى عندما يكون الصبي الذي يقودها أصغر منها[1].

ومن الفروق التمييزية الواضحة بصورة خاصة، تصوير البنات الصغيرات ينقدن على الدوام لكلب صغير واضح أنهن لم يستطعن السيطرة عليه بينما الصبيان الصغار يظهرون مع كلب ضخم، ومع أنهم أصغر منه، فهم يقودونه بشكل ممتاز"[2].

ممتازة يا ليونوره فايتسمان، ليتك قرأت قصة خولة قبل أن يأتي عصر تقرأ فيه بنات خولة ذلك التوجيه الإعلامي الظاهر والمبطن، لم تنتظر خولة أن يهب الآخرون إلى نجدة أخيها الذي أسر في معركة أجنادين، لقد انطلقت فوق فرسها تحمل رمحها تحمل على عساكر الروم الذين أسروا أخاها كأنها السهم المارق تدخل بينهم فتزعزع كتائبهم وتحطم موكبهم تخرج من جهة وتدخل في أخرى معرضة نفسها للهلاك لا هيابة ولا وجلة فيقلق عليها الناس باعتبارها فارسا ملثما مجهولا، ظنوها القائد خالد بن الوليد فقالوا: ما هذه الحملات إلا لخالد ولكن خالدا يظهر لرافع ابن عميرة فيسأله: من الفارس الذي تقدم أمامك فلقد بذل نفسه ومهجته؟

---

(1) أصل الفروق أرزولا شوي صفحة: 125.

(2) أصل الفروق بين الجنسين أورزولا شوي صفحة: 125.

فقال خالد: والله إنني أشد إنكاراً منك، أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله، فقال رافع أيها الأمير إنه منغمس في عسكر الروم، يطعن يميناً وشمالاً، فقال خالد: يا معشر المسلمين احملوا بأجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله فأطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة والقائد خالد أمامهم وكلما لحقت به الروم لوى وجندل فعند ذلك حمل خالد ومن معه ووصل الفارس الملثم إلى جيش المسلمين فتأملوه مخضبا بالدماء فصاح خالد والمسلمون: لله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله وأظهر شجاعته على الأعداء، اكشف لنا عن اسمك وارفع لثامك، لم تجب خولة وإنما بعدت فلحق بها القائد بعد أن ظل الآخرون يطالبونها برفع اللثام، يقول لها: ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك، من أنت؟

أجابت خولة من وراء اللثام بعد إلحاحه: إنني أيها الأمير لم أعرض عنك إلا حياء منك لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور وإنما حملني على ذلك أي محرقة الكبد زائدة الكمد، فعاد يسألها: من أنت؟

قالت أنا خولة بنت الأزور أخت ضرار المأسور بيد المشركين وإني كنت مع بنات العرب وقد أتاني الساعي بأن أخي أسير فركبت وفعلت ما رأيت.(1) وهنا حمل المسلمون وحملت خولة وعظم على الروم ما نزل بهم من خولة بنت الأزور وقالوا: إن كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فمالنا بهم من طاقة.

---

(1) زينب بنت فواز العاملي معجم النساء صفحة 300 والأعلام للزركلي صفحة: 325.



انهـزم الروم ولـم يظهـر ضـرار وتقـدم خـالد وخـولة أبطال المسلمين وسألوهم عن ضرار؟

قالوا لعله العاري الجسد الذي قتل منا عددا كبيرا وقتل ابن صاحبنا؟ قال خالد إنه هو، قالوا: لقد بعثه قائدنا إلى حمص ليبعث من هناك إلى الملك ثم لينظر في أمره.

هنا دعا القائد خالد برافع بن عميرة، ليقول له ما أعلم أحدا أخبر منك بالمسالك، وأنت الذي قطع بنا المفازة من أرض السماوة، فخذ معك من أحببت واتبع أثر القوم فلعلك تلحق بهم، وتخلص صاحبنا من أيديهم.. وانتخب مائة فارس وعزم على المسير وبشرت خولة بمسير رافع، فأسرعت إلى تقلد سلاحها واعتلاء حصانها وذهبت إلى خالد بن الوليد لتقول له سألتك بالطاهر المطهر محمد سيد البشر إلا إن تسرحني مع من سرحت فلعلي أكون مشاهدة لهم!! فقال خالد لرافع: أنت تعلم شجاعتها فخذها معك، فقال له رافع، السمع والطاعة، وما هو إلا وقت قصير حتى وصلوا إلى وادي الحياة بالقرب من حماة وما هي إلا ساعة من نهار وضرار معهم بعد أن قتلوا الآسرين!![1] خولة أسرت مثلما وقع أخوها في الأسر وذلك في موقعة صحورا بالشام ولكنها لم تستسلم ولم تقر لها عين، لقد جمعت خولة النسوة المأسورات معها وقامت فيهن خطيبة، قالت: يا بنات حمير وبقية تبع، أترضين لأنفسكن علوج الروم ويكون أولادكن عبيدا لأهل الشرك؟

---

(1) عمر رضا كحاله أعلام النساء صفحة: 378.

فأين شجاعتكن؟ وأين براعتكن التي تتحدث بها عنكن أحياء العرب ومحاضر الحضر؟

إني أراكن بمعزل عن ذلك وإني أرى القتل عليكن أهون من هذه الأسباب وما نزل عليكن من خدمة الروم.

قالت لها زميلة لها: صدقت والله يا بنت الأزور نحن في الشجاعة كما ذكرت وفي البراعة كما وصفت، لنا المشاهد العظام والمواقف الجسام ووالله لقد اعتدنا ركوب الخيل وهجوم الليل غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت وإنما دهمنا العدو على حين غفلة وما نحن إلا كالغنم بدون سلاح، فقالت خولة: يا بنات التبابعة خذوا أعمدة الخيام، وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم، فقالت لها زميلتها عفراء بنت عفار: والله ما دعوت إلا ما هو أحب إلينا مما ذكرت ثم تناولت خولة عامودا ومن بعدها زميلاتها اللاتي استمعن إليها وهي تقول لهن لا ينفك بعضكن عن بعض وكن كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن فتملكن فيقع بكن التشتيت وحطمن رماح القوم وكسرن سيوفهم وهجمت خولة وهجم النساء وراءها وقاتلن قتالاً شديداً حتى خلصن أنفسهن من الأسر[1].

لو عدنا إلى خولة بنت الازور الأسدي، تلك المرأة الشاعرة التي فكت أخاها ضراراً من الأسر ثلاث مرات متواليات وقارنا

(1) أعلام النساء صفحة: 380.



عصرها وعصر حفيداتها بعد ألف ومئات السنين لوجدنا المشهد يختلف اختلافاً شاسعاً، ولرأينا المشهد مغرقا في الغرابة، ففي عصر لا سيارة فيه ولا طائرة تستطيع المرأة السفر من بر إلى بر وتستطيع أن تتخذ قرارها وتنفذه دون خوف من أن يغضب أخوها أو ابنها الذي يرى أن من مستلزمات بقائه رجلا، وضعها في أسر الأسباب التي قد تؤدي إلى الفتنة!!

ولأن الفتنة أشد من القتل فقد اخترعوا الأسباب وتعددت الأسباب والموت واحد، ولأن الموت قد غيب قصصا كانت مزهرة بالدلالات فإنني أعود دائما لاستلهام أريج عبق فواح بطيوب أعواد خيزران ونخيل بسقت في أرض خصبت فأعطت.[1]

الخيزران:

الخيزران بنت عطا هل كان لها من اسمها نصيب؟

غصن الخيزران هذا النبات الجميل يأتي للدنيا طرياً ولكنه في نفس الوقت له ضربة لاسعة، مؤلمة، الخيزران المرأة، أتت من بين بنات اليمن الذي كان سعيدا وبناته هن اللاتي لم يقبلن أبدا أن يتركن الرجال وحدهم يهتمون بالسياسة، ألسن حفيدات بلقيس؟

اقتيدت هذه المرأة من اليمن لتجد نفسها في قصر المنصور الخليفة العباسي الذي أهداها لابنه المهدي مع وصية يقول له فيها إنها أهل لإنجاب الولد!!

---

(1) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب بنت علي بن حسين بن فواز العاملي: أعلام النساء وعمر رضا كحالة.

لقد أنجبت خيزران للمهدي "الولد" إنها أم هارون الرشيد ذلك الخليفة الذي اتسعت في خلافته الإمبراطورية الإسلامية حتى وصل هذا الابن إلى أن يصل إلى مخاطبة السحابة التي تمر في بغداد قائلاً لها: اذهبي يا سحابة فأين ما تذهبين فإن خراجك عائد إلي أين ما ذهبت..

لقد أحبت الخيزران هذا "الولد" هارون فقد توسمت فيه النجابة وما أخطأ حدسها أبدا، لقد كان حدسها في محله، لقد كان هارون الرشيد حاكما أسطوريا في أسلوب حكمه واتساع إمبراطوريته التي امتدت في جهات الأرض.

هذه المرأة انغرست في السياسة غصنا طريا ثم أصبحت شجرة خضراء ولكنها لا تخلو من الشوك، في البيئة الصحراوية تتسم الأشجار بالأشواك التي تكون حماية لها حتى لا يأخذها الموت سريعا مثل أزهار الربيع التي تأتي بعد المطر الموسمي و الخيزران كانت شجرة في قصر المهدي يتظلل تحتها ذوو الحاجة ومن يريد الوصول لمبتغاه، وكان المهدي يقدر لها رغبة العطاء ويترك لها الزمام ولكن عندما أطل ولدها البكر الهادي الذي لم يكن هادئا في طبعه وخصاله، كان لا يملك الكثير من الكياسة التي يمتلكها أخوه الأصغر هارون، أراد الهادي أن يقص أغصان هذه الشجرة التي قد تعيقه عن القفز إلى محراب أخيه هارون ولكن الشجرة الصبارية لم ترض ولم تصبر على ذلك، يقولون إنها من حرضت الجواري على خنقه بواسطة الوسائد!!



لم تتوسد الخيزران الراحة في حكم ابنها الهادي فقد اكتشفت قبل ذلك أنه، أي الهادي، أراد أن يتخلص منها بواسطة طعام أرسله لها هدية منتقاة، ولكنها جربته على كلب مسكين (كانت الكلاب حقلا للتجارب بالسموم والآن البشر حقل للتجارب بالأسلحة النووية، لو سألنا ما الفرق بين الأمس واليوم في حقل التجارب؟ لوجدنا الفرق الآن في صالح الكلب!!) نعود لشجرة الخيزران وعصاها القاتلة التي رفعتها بعد خلاف استمر مع ابنها الهادي طيلة حكمه الذي استمر سنة وشهرين، لقد رفض تواجدها السياسي وحضورها الذي كان بقعة من الشموس الذي ظن أنه يخفي توهجه الذي لم يكن إلا باهتا في الأساس، ضاق ذرعا بمن يلجأون إلى والدته فدعاهم ليقول لهم:

ـ من هو الأفضل بيننا أنتم أم أنا؟

ـ أجابوا: بالتأكيد أنتم يا أمير المؤمنين،

وواصل الأسئلة:

ـ أي الأمهات أفضل أمي أم أمهاتكم؟

ـ أجابوا: بل أمكم يا أمير المؤمنين،

ـ من يعجبه منكم إشاعة الأخبار عن أمه؟

ـ أجابوا: لا أحد يحب الحديث عن والدته!!

قال الخليفة:

ـ إذن لماذا يأتي الرجال منكم إلى والدتي للحديث معها؟

للعقل علامات لا يخفيها الظل ولا تخفيها الأحجبة وقد اكتشفت الخيزران أن هناك عقلا متفتحا يريد أحد ما أن يمنع إزهاره، كان موسى الهادي يريد تولية ابنه جعفر ولاية العهد، وهو حق هارون العاقل الرشيد و"عقلها" أي الخيزران، كان يعمل من وراء الحجاب، سبق السيف العذل، هكذا يا هادي الأمر ليس لك.

لقد قضى عليه إنه غير واثق من نفسه، الهادي لم يهتد إلى أن المرأة سند له إن سار بجانبها، لقد أراد أن يغلق عليها حلقة لا تتسع لشجرة تعشق الشمس فاغتالته الوسائد التي لم يتكئ عليها!!

بالمناسبة، يقول ابن الأثير في كتابه: الكامل في التاريخ: إن موسى الهادي كان يعاني من عيب خلقي في فمه، هذا العيب يجعله متقلصا لا يمكنه من أن يبدو في كل حالاته مغلقا، فكان والده يعين له خادما يذكره على الدوام بأن يغلق فمه فيقول موسى أطبق، لذا لقب بموسى أطبق هنا يخطر سؤال بريء جدا هل لهذا صلة بما طلبه من والدته، من أنها يجب عليها إغلاق فمها؟

لقد نفر الهادي من أمه من تدخلها في السياسة فأرسل لها من يقول لها: " لا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في الملك"[1].

قال لوالدته بعد أن رفض منحة توسطت لمنحها لرجل توسط بها، "أي توسط بالأم الخيزران": مكانك تستوعبي كلامي والله، وإلا

(1) تاريخ الطبري المجلد الرابع صفحة: 604



فأنا نفي من قرابتي من رسول الله ﷺ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟

أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك، ما فتحت بابك لمليّ أو ذميّ"![1]

هارون الرشيد هذا الحاكم الإسطوري قدر لهذه المرأة الأم الحاكمة من وراء السجف وجودها، هذا الرجل الواثق من نفسه كان أكثر عظمة وهو يظهر لوعته وحزنه على فراق أمه الحاضرة في أعماق تاريخ لم ينصف امرأة تجرأت على خرق نظام وضعته مجموعة تخاف المتغير الآتي.

يقول الطبري في شهادة إنسان حضر دفن الخيزران " لقد رأيت الرشيد يوم ماتت الخيزران وذلك في سنة ثلاث وسبعين ومئة وعليه جبة سعيدية وطيلسان خرق أزرق وقد شد به وسطه وهو آخذ بقائمة السرير حافياً في الطين حتى أتى مقابر قريش فغسل رجليه ثم صلى عليها ودخل قبرها فلما خرج من المقبرة وضع له سرير فجلس عليه واستدعى الفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنفقات وقال له: "إني كنت أهم أن أوليك فتمنعني أمي فأطيعها".

---

(1) نفس المرجع السابق.

هارون الرشيد الواثق من ذاته لم يطفئ زبيدة المضيئة لأنه لم يكن باهتا، لقد أحبها كثيراً وأحب أفعالها الخيرة، وأيما رجل رشيد ومستقيم التفكير فلا بد أن يقف عند النصف الثاني من تكوين الحياة، عنصران لا يفترقان لتكوين الحياة السوية فالفوارق البيولوجية ترسخ عملية التوافق والتلازم شاء المعترضون أم أبوا.

ونعود مرة أخرى في بحثنا هذا، لدراسة، دكتورة ليونوره فايتسمان لنرى كيف ترسّخ الكتب المصورة صورة المرأة في الكتب المدرسية، تقول الدراسة إن في الثلث تقريبا من الكتب المصورة المدروسة لا يوجد نساء على الإطلاق فالصور والقصص تعبر عن عالم رجالي فحسب، وفي ثلثي الكتب المصورة والتي تظهر فيها النساء يكن إما شخصيات تافهة ووضيعة أو يكن أمهات وزوجات لأبناء أو أزواج شجعان[1] إلى أن تأتي هذه الدراسة إلى وضعية الحيوانات التي تصور على الدوام ذكورية قائدة على عكس الواقع الذي تقوم به أنثى الحيوان التي من المعروف أنها تقوم على صعيد الواقع الملموس بجميع الأعمال من حماية وإطعام بينما في تلك الكتب لا وجود لذلك ولا ذكر له "فقط هناك حكاية البقرة الغبية وحكاية الدجاجة الغبية"[2].

وهنا لن أنسى سخط وسخرية مارك توين على اللغة الألمانية عندما تسقط حق الأنثى في أن يكون لها ضمير معرف أو

(1) أرزولا شوي أصل الفروق بين الجنسين صفحة: 123.
(2) المرجع السابق.



تجنيس يقول بسخريته المريرة "إنه في اللغة الألمانية ليس للمرأة الشابة جنس فارق فيما يحظى نبات اللفت بجنس محدد فأي وقار ومهابة يتمتع بهما نبات اللفت؟

وأي مهانة لحقت بالبنت أو الفتاة؟"!

لا مهانة ولكنها علامات استغراب تغرس فتصبح نخيلاً شامخة تنظر بسخرية للعقول التي ألفت نظريات خربت بها عقول أجيال وأجيال وما أنزل الله تعالى بها من سلطان،

ألم يقل الفيلسوف كانط إنه لا يحصر مناقشته على الموجودات البشرية وإنما ينطبق حديثه على الموجودات العاقلة بأسرها لتبرير استخدام معيار مزدوج عن الأخلاق الجنسية إلى الحد الذي يرى معه أنه لابد من الصفح عن المرأة إن هي أقدمت على قتل طفلها غير الشرعي لأن من واجبها أن تتمسك (بشرفها الجنسي) مهما كان الثمن!!

إن هذا "الكانط" الفيلسوف الذي ينتهي في نظريته الأخلاقية والسياسية إلى أن الخاصية الوحيدة التي تجعل أي شخص على الدوام غير مؤهل للمواطنة في الدولة وبالتالي غير مؤهل للالتزام بالقوانين التي تمت الموافقة عليها هي أن يكون قد ولد أنثى!!

إذن هناك إصرار عجيب على تشكيل الفكر البدئي أو البدائي بما يرضي رغبات تسلطية تنتشر على الكرة الأرضية، في الغرب

وفي الشرق، أيضاً في الشمال وفي الجنوب، اختلفت فقط المشاهد الفلكلورية ولم تختلف الفكرة من حيث المبدأ، في فكرهم إن من ولدت أنثى لا تستحق أن تحمل اسم إنسان عاقل موجود!!.

لن أخفي رغبتي كإنسان أولا وكامرأة ثانيا في إطاحة القمع الذي يتعرض له الفكر، لمجرد أن حاملته امرأة وخاصة أنها حملت وتحمل الكثير منذ وقفت مع آدم وسارت معه في دروب الحياة لقد حملت الجنين، ذكرا وأنثى، لم تفرق، ولكن حينما تهبط كائنا أنثويا جميلا تجحظ عينا من يحمل الشرور، وتحبط "هي" "الأم" كأنها عملت منكرا!!

لقد تعرض فكر المرأة إلى القمع المبرمج الذي كان يتواصل بصمت ومازال رغم ثبوت أن الفروق العقلية تبدو الآن واهية وغبية جدا ولكنهم يظلون يتهمونها دائماً في إبداعها وفي إنجازها عملا وعقلا، إنهم يسلبون منجزاتها التي يتمددون فيها منذ الطفولة!!.

تقول عالمة الاجتماع الفرنسية أندريه ميشيل "لم تكن النساء مستغلة قط كما هي في الرأسمالية المتأخرة ففي جمهورية المانيا الاتحادية يبلغ عدد ساعات العمل المجانية التي تقدمها النساء سنويا في تدبير المنزل وتربية الأطفال 50 – 54 مليار ساعة، ويبلغ عدد ساعات العمل المأجورة سنوياً 52 ملياراً، إن العمل المجاني في حقل إعادة الإنتاج، هذا يعني "أن النساء يقمن بثلثي مجمل العمل المنجز اجتماعياً ويقوم الرجال بالثلث"[1].

---

(1) أرزولا شوي أصل الفروق صفحة: 27.



هو يقوم بالثلث ويرفض أن تشاركه الرأي في إدارة حياتها معه، إنه يرفض بصوته العالي همساتها التي تشبه الموجات الصوتية التي لا ترافقها الطبول.

إن لها عقلاً إنسانياً مبدعاً تماماً مثلما له، تستطيع من خلاله أن تبدع أكثر فالأزرار متوفرة لها وله وبالإمكان أن تضغط عليها ومن خلال الفضاء الواسع ومن خلال الشبكة الإلكترونية ذات الحركة السريعة بدأنا نتعامل مع ما أسمته الكاتبة الأمريكية المتخصصة في الكتابة عن مشكلات النساء، "دونا هاراواي" الكائن السيبرنطيقي وهو كائن هجين من الآلة والكائن الحي، يبدع ويتفوق إذا تهيأت له فرص العمل والأجواء المناسبة، أبدع وتفوق وذلك في مقالتها التي أطلقت عليها "إعلان مبادئ "الكائن السيبرنطيقي" تقول هاراواي "في مقالتها التي كتبتها في عام 1991 "إنه كائن سيبرنطيقي هجين من الآلة والكائن الحي يتحلى باليقظة والمشاركة في التوصل إلى طرق جديدة، لصياغة الذات المعاصرة"[1]، وتقول هاراواي "إنها تفضل أن تكون هذا الكائن السبيرنطيقي على أن تكون إلهه".

طبعاً لن تكون دونا هاراواي إلهة، ولن يكون غيرها، فلا إله إلا الله واحد أحد ولكنها تبدي رغبتها وفكرتها بأن ترسخ رؤية تمييع الحدود بين الإنسان والآلة، وهذا سوف يؤدي في النهاية إلى طمر "تصنيف" العمل النسائي والرجالي، فمن يملك عقلا يعمل به، فله

(1) النسوية وما بعد النسوية سارة جامبل صفحة: 131.

المجـال، رجـلاً أو امـرأة، وأنا هنـا مـثل هـاراواي لن أتمنى أن أكـون كائنا سبيرنطيقيا ولكني سوف لن أسمح باجتياح عقلي وتاريخي بل أني سوف أغضب، وغضبت الغضب الصحيح، كما أزعم بكتابي هذا، آه، كأني أسمع الآن وهل هناك غضب صحيح؟

أسـتطيع أن أقـول، نعم، ويطول المقـال بعـد الشـواهد "بنعم" ولكني سوف أكتفي بحكاية دلالية قرأتها في كتاب جميل من الكتب التي يتحفنا بترجمتها المجلس الأعلى للثقافة في مصر الحبيبة، الكتاب من تأليف الدكتورة "كلاريسا بنكولولا" وهي إخصائية في التحليل النفسي وقاصة وباحثة" تقول الحكاية المأخوذة من الشرق: كان هناك رجل حاد المزاج عنيف الطبع مما أضاع عليه كثيراً من الوقت وأفقده الكثير من الأصدقاء المخلصين في حياته، ذهب إلى حكيم عجوز يلبس الأسمال البالية واقترب يسأله: "كيف يمكنني بالله عليك أن أسيطر على شيطان الغضب؟".

أمره العجوز أن يرحل إلى واحة قاحلة بعيدة في الصحراء وأن يجلس هناك بين الأشجار الذابلة وأن يسحب من المياه الضحلة شبه المالحة ويقدمها إلى أي مسافر أو عابر سبيل يمكن أن يغامر بالمرور هناك وفي محاولة منه لقهر الغضب، انطلق الرجل إلى الصحراء إلى مكان الأشجار الذابلة، ظل الرجل شهورا متسربلاً ببرنس يقيه الرمال الطائرة، يسحب المياه الحمضية من باطن الأرض ويقدمها إلى كل من يصل إلى هذا المكان، مرت سنوات ولم تعد بعد تنتابه نوبات الانفعال، وفي يوم من الأيام أتى إليه راكب



أسود - ولا أدري لم اختير هذا اللون في الحكاية؟ - فوق جمل إلى الواحة الميتة ونظر نظرة متغطرسة إلى الرجل الذي ناوله الماء في إناء وسخر القادم من رداءة الماء الكدر المشبع بالشوائب ورده متكبرا ومضى ينهض بجمله، في الحال استبد الغضب الأعمى بالرجل الذي يقدم الماء فأمسك بالراكب من فوق جمله وطرحه أرضا وقتله في مكانه، أوه لا!، لقد شعر في الحال بالحزن لأنه سمح للغضب بأن يستبد به، وانظر ماذا يأتي بعد، فجأة انشقت الأرض عن راكب آخر، جاء يجري بسرعة عظيمة، نظر الراكب إلى وجه الرجل الميت وقال متعجبا: "الحمد لله لقد قتلت الرجل الذي كان متوجها إلى قتل الملك" وفي هذه اللحظة تحولت مياه الواحة العكرة إلى مياه عذبة صافية وأينعت أشجار الواحة الذابلة بالثمار والنماء"(1).

تقول الكاتبة كلاريسا بنكولا: نحن نفهم هذه القصة بصورة رمزية إنها تعلمنا ألا نكتم الغضب دوما دون تفرقة، ولكن نطلقه في الوقت المناسب، وتقول "إن منح الحياة" وتعني به العطاء كما فهمت "هو نبض فطري عند معظم النساء، هن صالحات له معظم الوقت، إلا أن هناك وقتا للثورة من الأحشاء، وقتا للغضب الصحيح للثورة الحقيقية"(2).

(1) نساء يركضن مع الذئاب، كلاريسا بنكولا صفحة: 443.
(2) كلاريسا بنكولا نساء يركضن مع الذئاب صفحة: 443.



القوية بإيمانها على وسطها ببرد، ليساعدها هذا البرد في حمل الجنين الذي هي مسئولة أمام الله عنه، ولتتقي الإجهاض الذي قد يتعرض له جنينها ولتحمي رسول الله، الله أكبر ما أجمل المرأة المؤمنة القوية، لقد قاتلت أم سليم بنت ملحان في موقعة حنين كأي بطل من الأبطال، لا تحمل إلا خنجرا تشهره في وجه الأعداء الذين يريدون قتل الرسول أو التخلي عنه، لا، هذا لا يكون، كيف لهم أن يتخلوا عنك يا رسول الله و أم سليم هناك؟!

ولأنني هنا بعد ألف وأربعمائة وخمس وعشرين سنة مازلت أسمع التشكيك، في قدراتي العقلية والإبداعية والسياسية، وهذا مربط الفرس التي لا يراد إلا أن تبقى فرسا وحسب، تحملُ ويُحملُ عليها الأثقال، وحملت المرأة الأثقال من أفعال وأقوال، وسارت مفعمة بالحيوية متدفقة بالإمكانيات.

ولأن إمكانياتها متدفقة مثل النهر الذي لا ينضب بل هو الخصب والنماء، فإن النبض يستمر في الدفع إلى أعلى ونبض المرأة السياسية مثل أي نبض إنساني لا يتخلف إلا أن يعيقه عائق.

لمَ الاستغراب؟

شيء جميل لي ومثير ربما لذلك الرجل من جنوب الأرض وأخوته في شرق وشمال الأرض؛ ففي أثناء انهماكي في كتابة هذا الكتاب قرأت تصريحاً صريحاً وواضحاً لوزير خارجية المملكة العربية السعودية الأمير سعود الفيصل: قال وزير الخارجية الأمير

سعود الفيصل في مؤتمره الصحفي الدوري في الرياض يوم 9 أكتوبر 2003: "أنا أستغرب من الاستغراب في تشغيل المرأة في مجال مثل وزارة الخارجية" "وإن عمل النساء في وزارة الخارجية ليس جديداً".

وقال أيضاً: "وهذا أمر طبيعي ومطلوب".

إذن هو مطلوب وطبيعي فلمَ الاستغراب؟

ذاك سؤال، ظل لا يتلاشى، ظل يأخذني بعيداً.

ثم أعادني إلى المبتدأ لأبحث عن الخبر، والأخبار تقول: إنه الخوف اللامبرر من عمل المرأة، ذلك الخوف مازال مضارعا يقرع بأوامره العقول النائمة فيها خلايا الوعي، يخافون من وجود المرأة، وهو وجود لا يمكن الهروب منه، فهل أحد عاقل يهرب من حضن دافئ؟

تحتوي المرأة الرجل جنينا ثم تضعه في حضنها طفلا ثم يأتي زمن يعلن ذلك الذي كان في الأحضان استغرابه من وجودها الفاعل!

هنا في الشرق مهد الحضارات، والحضارات كما رأينا دائما تقوم بالسواعد مجتمعة، ولكن أتى زمن ربطت نصف السواعد، فما الذي حدث؟ سقطت مباني الحضارة على الرؤوس الصغيرة التي ظلت تستظل بها ولا تجديد فيها للبناء، وللتجديد دواع تصرخ في صحارينا، والمرأة في أصعب الظروف تلتقط مثل رادارات الاستشعار نداءات التجديد البنائي الحديث، الذي نحن كأمة



مسلمة تحيط بها الأمم أحوج ما نكون إليه، ولكن هؤلاء الذين يضعون السلاسل حول معصميها ينسون أنهم لا يستطيعون البناء، ولا السير في سفينة الحياة بدونها، وهنا كان ذلك التقهقر الذي تنزلق إليه الأمة كلما وضعت قدميها على سلم الصعود.

أسمع فيافي الصحراء تناديني كامرأة مع أخواتي لنقف مع إخوتنا وآبائنا وأبنائنا لنشيد ونبني لأبنائنا الصغار كي تقف هذه الأمة في موقفها الذي تستحقه وليس ما وضعت فيه.

السياسة للأقوياء فكرا وعقيدة، والقوة لها ما يدعمها من رباط الخيل الذي آمل أن لا يربط به النصف الآخر من المجتمع، فالأربطة تربط بها البُنى التحتية حتى لا تقع على ساكنيها، ولا أرى الرجل يسكن وحده كإنسان مكتمل الهيئة والرؤى، وإن رأت فئة ذلك فهذا ما أوقع مجتمعنا الشرقي المسلم في موقف الخائف المترقب لما سيكون وكائن.

وكائن الآن ثورة "كما يقولون" للبحث عن حقوق المرأة التي غيبت طويلا، حسناً، حسناً جداً هذا البحث عن حقوق المرأة، لو كان مجردا عن الهوى، ولكن دعونا أيها الأحبة نفتح نافذة على هذه الثورة، أراها في كل جهات الأرض، الكل يقول: أعطوا المرأة حقوقها، ونحمد لله ونقول: لله وحده المنة، فهناك من يريد الحق ولكن هل صدقت الأصوات؟

لنلق حول الأصوات التي ملأت الفضاء وأوراق الصحافة نظرة خجولة والخجل من سمات النساء والوضع يحتم هذا الخجل المبرر فلكلِ صوت مصلحة خاصة تصرخ في الأرجاء.

يقولون: أعطوا المرأة حقوقها، ونبحث عمّا تعنيه الحقوق، فنجد أنها تعني حقوقهم في الاستفادة من أوضاع تعنيهم في المنطلق الأولي وتفيدهم في الأخير، هل تتذكرون "السيدة مروة كفاكتشي"؟

تتساءلون: ماخطب هذه السيدة؟

لقد انتخبت نائبة عن حزب الفضيلة في البرلمان التركي، انتخاب؟

جميل وطيب، ما المشكلة إذن؟

إنها تريد أن تغطي شعرها..

وهل هذه مشكلة تمنع تفكيرها وتواجدها على رأس العمل؟

لا، ولكن هذا يمثل معتقداً دينياً..

ما المشكلة، هو معتقدها الذي تؤمن به ولها الحق في اتباع تعاليمه فماذا يضر الوطن التركي؟

هل تدك جبال الأناضول؟

أو هل تهبط أسطنبول في مضيق الدردنيل؟



ضجيج ولغط يطلقه العسكر والأحزاب "لا لمروة وإلا هناك انقلاب" وتنقلب الديمقراطية إلى سراب وينفض الجمع من حول مروة ليلحق بمن سمعت النصيحة واسمها نسرين أونال ليصفق لها العسكر والأحزاب، فقد خلعت غطاء الرأس.. سياسة أليس كذلك؟!

تبا لديمقراطية الفحولة.

حجب العسكر عنها السياسة لأنها لم تترك الهوى والهواء يلعب بفكرها وبشعرها، لقد كانت تريد أن تفكر وتعمل في هدوء، ولكنهم أرادوها غزالة تطاردها العيون وتفتك بها النظرات..

ثورة "يقولون" وبحث عن أشكال النساء في عصر الديموقراطيات التي يفصلونها على مقاساتهم المضبوطة عند خياط مطيع، لقد سرق حق المرأة في وضح النهار وقالوا: إنها تثير المتاعب لأنها أرادت أن تمارس حقها، حتى في طريقة ارتداء ملابسها، الفتيات الصغيرات يمنعن من دخول مدارسهن بفعل السياسة، امرأة تفوز بانتخاب الشعب نائبة تمنع بفعل السياسة، ترى أرجل هي السياسة يحمل عصا غليظة وخائفاً؟

أم كائن يصيب الأحاسيس بالشلل فيجعلها حجارة؟

في أوربا وفي أميركا وفي الشرق الآن من يقول إننا لا بد أن نكون سياسيين متحضرين.

ومرحباً بالحضارة التي لا تسلبني حقوقي، أريد أن أرتدي ما أرى أنه يليق بي، ولا أريدُ أحدا يقرر عني، أريدُ أخذ حقوقي ولا أريدُ أن أرى أن أحدا يسلبني إرادتي، فإذا غلبت الإرادة غلبت الوطنية والمرأة وطن لا تُغلب إلا ويغلب الوطن وينشل عنفوانه، فمن ذا يريد أن يشل العنفوان؟

في رحلتي اللولبية بحثت عن الحكمة فوجدتها، أنثى تلد العظمة، وتلد التواضع، فإن كانا توأمين، أعني العظمة والتواضع، فذاك وطن جميل يتكون، ودائما الأنثى تلد، فالحكمة أنثى، والشجاعة أنثى، والقوة أنثى، واللغة أنثى، والبهجة أنثى، والعبقرية أنثى، والرحمة أنثى، ولن تستقيم الحياة إلا بالحنان وهو رجل، والسلام وهو رجل، والحب رجل، والإيثار رجل، والذكاء رجل، إذن لماذا لا يلبس الرجل الحكمة وتحتضن المرأة السلام؟

لماذا لا يتواضع الرجل للحقيقة؟

ألا يريد هذا الرجل من جنوب الأرض، أو غربها أن يكون قويا عظيما؟

يقول حكيم من حكماء الصين واسمه لاوتسو "إن القوة الكبرى تأتي من التواضع".

ترى من يتواضع للحقيقة ومن يحملها فوق رأسه بدلا عن عقال أو قبعة مزركشة الألوان؟

سؤال؟ مجرد سؤال أريد أن يجيب عليه رجل يحب أن يلمس الحقيقة الناصعة البياض؟



كنت أريد الحكمة ناصعة جميلة، ولكن ذلك الرجل العجوز ذو الثياب الممزقة الرثة وأعني به التاريخ، حمل لنا كثيرا من المتناقضات والحقائق المذبوحة ولعل القارئ الكريم رأى ولمس معي ميل معظم الكتاب السابقين والذين لحقوا بهم، التمثيل بجثة الحقيقة بحيث يخرج هذا القارئ وهو مشتت الذهن فما يراه من أمه وأخته وزوجته التي تأويه بعد أن يكون قد خرج من حضن أمه يختلف عما يقرؤه، هو يرى ويلمس شيئا جميلا ويأتي كاتب بعيد ويكون عادة من الذين يشار لهم بالأظافر لأنهم يستخدمون الأظافر دائما في وجه المرأة" فهو فيلسوف" أو كاتب " كبير" يكتب شيئا يختلف عما ألفه، هذا القارئ يجد أن الصورة تختلف، تختلف تماما عما رآه، يجمع أولئك الذين يفلسفون واقعا لم يره إلا هم لأسباب ربما لا تكون مجهولة لمن يعرفهم ولكنها مجهولة للقارئ الذي يأتي ربما بعد مئات السنين ليقرأ المخالف والشاذ كمسلمات وقد أتت من ضعف وخوف وربما انتقام من فشل في الحب ليس إلا.

مررت على كثير من الممالك والبلدان لا أحمل جواز سفر مختوما عليه اسمي ورسمي ولا أقف في طابور العالم الثالث الذي فقد التاج والصولجان، كان صولجاني قلمي الأزرق يتدفق حبا نحو العالم والإنسان رجلا وامرأة، لكني في كثير من الممالك والأقطار توسدت الحزن عندما رأيت أمي حواء يساء لها من قبل أبنائها الذين حملتهم وعلمتهم الحرف الأول من اسمهم الذي شمخوا به

قبل أن يشمخ بهم، رحلت في البلدان وأنا أشمخ باسمي وأمي حواء، وحين عودتي من رحلتي اللولبية، فإني أقرّ في بيتي، إلا ما أتاحه لي ربي في شريعته، الكاملة، العادلة، التي قرأتها وعملت بها، قال ربي: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2].

وأيضا قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾[3].

وأيضا قوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[4].

وذكر ربي في قرآنه الكريم: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[5]، هاهو الله الحق وهو الحكيم الخبير يخبرنا أن عباده أولياء بعض ينصرون بعضهم بعضاً وبينهم المحبة ويأمرون بالمعروف

(1) التوبة: 105.
(2) النحل: 97.
(3) الرعد: 29.
(4) النساء: 124.
(5) التوبة: 71.



وينهون عن المنكر، فهل نرفض أن نكون أولياء بعض؟ هل نرفض أن نعمر الأرض ونأمر بالمعروف ونطيع الله بما أمر؟

حاشا لله أن يكون ذلك ونحن نفهم ديننا الحق.

ماذا تريدين؟

ويسأل سائل من الجنوب ربما أو ربما من الشمال ماذا تريدين أيتها المرأة؟

هل تريدين أن تصبحي وزيرة أو سفيرة؟

وأقول له: أيها السائل الكريم، أنا لا أريد رئاسة ولست أهوى قيودها، وحدودها التي لا أعلم "وربما الكثيرين غيري" أين تقف!!

إنما أريد أن تعلم أني قد بلغت الوعي منذ بلغته أنت، وإني مثلك تماما مواطنة من الدرجة الأولى، لي أن أختار ما يليق بي ولي أن أرفض كل ما يمس حقوقي وكرامتي، أريد أن أشاركك في صنع القرار الذي يمس حياتنا جميعا العامة والخاصة لا ينقصني كوني امرأة ولا يزيدك كونك رجلاً.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أصابت امرأة وأخطأ عمر) وهذا اعتراف من رجل قوي عادل، إنه عمر بن الخطاب ذلك الرجل الجليل زعيم الأمة وسيدها، لم يأنف أن يقول الحقيقة التي رآها أمامه وهو الذي عين أول رئيس للحسبة من بنات حواء، وهذا المنصب بمثابة وزير للتجارة، هذا المنصب تولته السيدة الجليلة الشفاء بنت عبد الله العدوية وهذه المرأة عرفت بقوة الرأي وسداده.

يخطئ الرجل تماما باستبعاد النصف الآخر من الذين يعمرون الأرض بحجج لا ترقى إلى الواقع الملموس بكل الحواس.

يقول دكتور عبد الله الغذامي في كتابه "المرأة واللغة" إن بعض العرب يحددون عمر المرأة بالفترة التي تنجب فيها الولد وبعد هذا العمر فلا يحتسب للمرأة وجود"[1]!

هكذا هم يعتقدون أو ربما يريدون، اختلطت الإرادة والاعتقاد هنا،لأمر في نفس يعقوب، ولكنهم هناك، أي في الولايات المتحدة الأمريكية ثبت عندهم العكس تماما، يقول الدكتور دوغلاس باول منسق برنامج العلاج السلوكي في قسم الخدمات الصحية في جامعة هارفارد ومدير الأبحاث في علم السلوك، يقول هذا العالم: "منذ نصف قرن، كان متوسط عمر الإناث في الولايات المتحدة حوالي 70 سنة بينما الذكور يعيشون قرابة 65 سنة أي إن الفارق كان في المتوسط حوالي خمس سنوات في متوسط العمر في سنة 2000 سيكون المتوسط 80 للإناث وللذكور 73 سنة"[2] واحسب أنت الفرق، يقول: هذه هوة عمقها سبع سنوات ويقول: "إن الفارق قد ازداد بقدر 40 في المائة خلال السنوات الخمسين الماضية"[3]، يقول الدكتور دوغلاس باول أيضا في كتابه: "تسع خرافات في الشيخوخة" : "قد يكون لهذا التغيير دلالة رقمية على الفوارق بين

(1) المرأة واللغة للدكتور عبد الله الغذامي ص 41 و 42.

(2) دوغلاس باول، تسع خرافات عن الشيخوخة صفحة : 248.

(3) دوغلاس باول تسع خرافات عن الشيخوخة صفحة: 248.



الإناث والذكور تتسع مع العمر وقد اكتشفنا أن النساء المسنات أفضل من ناحية الصحة الجسمية بشكل عام من الرجال في سني الشباب والشيخوخة اعتمادا على تأثير التدريب الحيوائي على الوضع القلبي الوعائي"[1].

كما عرضنا يقول: "إن الترابط بين حجم الشبكات الاجتماعية والصحية يظهر أن الإناث يستطعن البقاء في صحة جيدة مع قلة من المقربين أكثر مما يستطيع الذكور ربما لأن صداقات الإناث أعمق، أما الرجال المسنون فلا يستطيعون العيش بمفردهم؛ لأن عدد أصدقائهم المقربين أقل"[2]، وقال دكتور باول: "يثير الدهشة أيضا التغييرات التي تطرأ على الشخصية مع تقدم العمر، مرة أخرى يبدو أن الجنسين يتقدمان في اتجاهين متعاكسين، يميل الرجال إلى الاعتدال والمسالمة أكثر مع تقدم العمر ويصبحون أقل إصرارا على الاعتماد على الذات، أما النساء فيصبحن أكثر استقلالا ويملن نحو المغامرة والثقة، ويرتحن للتعبير المكشوف عن الغضب مع مرور السنين"[3].

نسأل الآن: هل تلام تلك المرأة من التعبير المكشوف عن الغضب؟ والله إنني لا ألومها، لا ألومك أيتها السيدة التي حتى مملكتك الصغيرة يريدون اجتياحها، يجتاحها ذلك الرجل إذا أحيل على التقاعد!!

---

(1) دوغلاس باول تسع خرافات عن الشيخوخة، صفحة 248.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

يقول دوغلاس باول في كتابه أيضاً: "خلصت الأبحاث حول الأزواج المسنين إلى أن الزواج يتعرض لأزمة عندما يتدخل الزوج الذي تقاعد لتوه فجأة في مملكة الزوجة، فها هو يحمل طاقة وقلقا وليس لديه ما يفعله ويريد أن يكون مفيدا فيعطي زوجته نصائح كثيرة حول ترتيب البهارات وتنظيف السجاد بطريقة أفضل وتشغيل جلاية الأطباق بشكل اقتصادي أكثر، وبعد قليل ترد الزوجة الهجوم ويصبح الوضع سيئاً"(1).

وسيئاً جداً أن لا نرد الهجوم عندما نهاجم، والأسوأ أن يكون الهجوم من معقل المرأة الذي هو مملكتها الباقية.

ولنترك الهجوم فلسنا من عشاقه ولكننا في الحقيقة نعشق العلم ونريد أن نصبح أعضاء في ناديه الذي يفتح أبوابه:

يقول العلم في دراسة نشرت في ألمانيا (وهناك شواذ وهذا موجود في كثير من الكائنات): إن الذكر هو الحلقة الأضعف في الجنس البشري، فهو مهدد بالانقراض في مدى 5000 جيل خلال 125 ألف سنة، وتقول تلك الدراسة إن الذكر وهو الأضعف مناعة والأقصر عمرا والأفشل دراسة والأقل ذكاء والأكثر هشاشة ومرضا والأعتى إجراما والأكثر إدمانا على الكحول والمخدرات والأكثر تسلطا وشنا للحروب وجد أنه يعيش أسطورة القوة لأنه خائف، فإذا نظرنا إلى الخارطة الوراثية رأينا أن الأنثى تحمل نسخة

---

(1) المصدر السابق.



مضاعفة من الكروموسوم (xx) مما يعينها على تلافي تراكم الأخطاء بعمل الطفرات فيتم ترميمها من خلال تبادل المعلومات الوراثية في الكروماسوم المضاعف الاحتياطي في حين أن الذكر يحمل كروموسوما ذكريا هزيلا غير قابل لتبادل المعلومات مع الكروموسوم (x) إلا في الأطراف إذن رغم أن نطفة الأنثى هي الأقل إلا أنها هي الأقوى، ورغم أن الطفل الذكر يظهر بكتلة دماغية أكبر عند الولادة من البنت فإنه يحتاج إلى 4 - 6 أسابيع حتى يلحق بالبنت، فالأنثى أفضل اكتمالا من الذكر في دماغها منذ لحظة دخولها للحياة!!

والبصر ماذا عن البصر؟

تقول هذه الدراسة: إن 1 من 12 من الذكور يحملون ضعفا في الإبصار اللوني، أما الأنثى ـ ما شاء الله تبارك الله ـ فإن النسبة لا تتجاوز الواحد في المئة، لقد جرى تأكيد الأمر في اجتماع عالمي في برلين في شهر أغسطس 2003 م وحضره 2500 عالم ديموغرافي في علم السكان ووجد في هذا الاجتماع أن الذكور يميلون نحو الجريمة تسع مرات أكثر من الإناث وأن عوائق اللغة عند الذكور هي ثلاث مرات أكثر من الإناث، وأن الأنثى أفضل في إثارة الأحاديث بسبب الشبكة العصبية الممتازة بين نصفي الدماغ، ولهذا ربما كان حسد الرجال الذي يأتي على شكل اتهام بثرثرة المرأة وليس من قبيل الثرثرة، وقد وجد أن معظم المتخلفين في الفصول من الذكور، وأن من اجتاز عتبة الثانوية كان السبق فيه للإناث 26 مقابل 21 للذكور وأن معدل محاولات الانتحار التي

أحصيت في ألمانيا تفوق فيها الذكور بحوالي أربع مرات على الإناث ولا ينتحر إلا الضعاف القانطون[1].

أم سلمة:

شرائع الحكمة نادت والرجال الحكماء سمعوا النداء وقد أتى هذا النداء من امرأة، جاء هذا النداء طيبا مباركا لا لبس فيه ولا غرور.

كانت أم سلمة السيدة هند بنت أبي أمية ابن المغيرة المخزومية بصحبة زوجها رسول الله وقائد المسلمين في رحلته إلى مكة بلده الحبيب الذي أخرج منه، كان عائدا ومعه جيشه الذي كان أيضا بشوق إلى العودة، الكل كان يتلهف لرؤية البيت الحرام وقبل الدخول تقف قريش في وجه الزحف المقدس رافضة دخول محمد وصحبه الكرام، ويقف الرسول الكريم يفاوض، لا يريد رسول الله قتالا، لأن الله شاء شيئا آخر وله الإرادة وله الطاعة، وقد امتنع الدخول وهنا تمت أخطر معاهدة سياسية، ذلك صلح الحديبية، ماذا يحدث؟

الوضع ليس مريحا فالهمهمة لها صوت مسموع والرفض بادٍ على الوجوه، يا الله، هناك شعور بأن رسول الله ﷺ تهاون في حق أتباعه ماذا يحدث؟

(1) المصدر السابق صفحة: 249.



إنهم يعلمــون أنه لا ينطق عن الهــوى، لعلهــا الأشــواق تغلب الأحداق فلا تدعها تحلق في الآفاق.

يصدع الرسول الكريم بالأمر:

تحللوا من ثياب الإحرام واذبحوا الفدية فلا دخول حتى يأذن الله.

الله أكبر، لا امتثال لأمر رسول الله، إنها كارثة.

يدخل الرســول إلى زوجتــه الحبــيــبــة ذات العــقل الراجح والبصيرة النافذة يدخل إلى أم سلمة والألم يعتصر قلبه الطاهر، ليقول لها: لقد هلك القوم.

وتسأله: لماذا يا رسول الله؟

فيقول لها: لقد أمرت الناس ثلاثا فلم يمتثلوا.

هنا تكلمت المرأة الحكيمة، قالت: اخرج أنت يا رسول الله واحلق شعرك واذبح دون أن تتحدث إلى أحد منهم؛ فإنهم إذا رأوك تفعل لا بد فاعلون.

واستمع الرسول الذي يعلم أن الله يضع الحكمة حيث يشاء لا فرق بين عربي وأعجمي ولا ذكر ولا أنثى إلا بالتقوى، استمع الرسول الكريم للمرأة الواعية فتسابق المسلمون لامتثال الأمر ونفذ الأمر بحكمة الرجل الحكيم مع المرأة الحكيمة..

إذن المرأة حكيمة ومكلفة بكل ما كلف به الرجل، الشهادة، الحج والزكاة، والصيام، والصلاة، والصلاة في المساجد كانت

متاحة بأمر من رسول الله ﷺ: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله) وهناك شاهد عمل قالت السيدة عائشة رضي الله عنها إنها قالت:"كان رسول الله ﷺ يصلي الصبح فينصرف النساء متلفعات بمروطهن، لا يعرفن أو لا يعرف بعضهم بعضاً من الغلس"(1) تلفت حولي أبحث عن مسجد كي أقيم صلاتي به فلم أجد، ليس لي الآن غير بيتي، وفي المسجد الحرام، هناك سيجوا لي مكاناً صغيراً فيه، لا يسمح لي بأن أتجاوزه، ولو تجاوز أعداد النساء نصف العدد الموجود في رحاب البيت!!

وتساءلت: من أصدر هذا الأمر؟

فجاءتني إجابة غامضة عن سد الذرائع ولا أرى مسوغاً لهذه الذرائع التي بالإمكان إيجاد حل أفضل منها والتي تحرمني الصلاة في مساجد الله التي تعادل ألف صلاة عن الصلاة المقامة في مكان آخر غير المسجد الحرام، يقول الرسول ﷺ (إن كل خطوة تحط بها سيئة وترفع بها حسنة) إنها للمسلمين المكلفين ولم يقل إنها للرجل خاصة، توقفت قليلاً أبحث عن تلك الذرائع، يقول ابن الجوزي المتوفى عام 597 من الهجرة في كتاب أحكام النساء: (وإذا صلت المرأة مع الرجال وقفت بعد صفوف الرجال، فإن وقفت في صفوف الرجال كره ذلك ولم تبطل صلاتها ولا صلاة من يليها) . هنا نجد في الحقيقة تعليلاً منطقياً لكراهية وقوف الرجال خلف النساء

(1) أسطورة الرجل: مقال للدكتور خالص جلبي، نشر في جريد الشرق الأوسط 2003/11/6م.



وهو مراعاة كريمة لحياء النساء وخجلهن من أن يركعن ويسجدن وخلفهن عيون قد ترقبُ في لحظةِ ضعف إنساني ما يحدث ـ نعود إلى ابن الجوزي الذي واصل حديثه قائلاً: وقال أبو بكر عبد العزيز من أصحابنا ـ من أصحاب ابن الجوزي ـ:

(تبطل صلاة من يليها) انتهى الفصل في كتاب أحكام النساء ولكن نعود إلى أبي بكر هذا: إنه عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد أبو بكر المعروف بغلام الخلال كان محدثا، مفسرا، له اختياراته الفقهية التي ليست بالضرورة صائبة، فالقرآن وسنة نبي الله هما نور الطريق، وغايتي كامرأة مؤمنة إرضاء خالقي التي ليست بالضرورة ترضي الآخرين عن ما أقوم به من عمل[1].

نعود إلى فصل آخر من كتاب ابن الجوزي (وهذا الخروج إلى المسجد مباح لها، فإن خافت أن تفتن برؤيتها فلتصل في بيتها، فقد أخبرنا ابن الحصين بإسناده إلى زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ولتخرجن تفلات" وعن عبد الله بن عمر رضي عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها" عليك صلوات الله وسلامه يا رسول الله لم تمنع النساء من الصلاة في المساجد ومنعت من يمنعهن ولكن بعد عقود من السنين أتى من يمنعهن بسياسة سد الذرائع!!.

(1) كتاب أحكام النساء للحافظ عبد الرحمن بن علي بن الجوزي صفحة:200.

لحظة استرجاع:

"لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" قالها الرسول

وحانت الصلاة،

وذهبت الأمَة إلى الصلاة

وصلت الأمَة في خشوع

والسلام عليك يا رسول الله

قد حان وقت العمل،

تمنطقت نطاقها

وانطلقت تفدي

بروحها الرسول

وتلك أم عمارة من يطيق

ما تطيق بكفها الرقيق؟

سلام على الجسارة والجدارة

سلام على امرأة من رحيق..

ويا أم هاني امنحي الأمان

يا سيدة في بيتها

وأمَة في مسجد الرحمن



لك الأمان..

لك الأمان..

لك الأمان أيها الرجل

ويجري خلفه علي:

لا بد من عقاب:

لقد كان له جولة

في العصيان

وفي الخراب

لقد استجار..

وقد أجرتُ مثلك يا علي

ولن يناله العقاب،

ويذهبان إلى الرسول في لحظة اضطراب،

قالت: قد أعطيت رجلا خائفا أمانا،

قال الرسول: "قد أجرنا من أجرت يا أم هاني"

وعم السلام،

أختك مثلك

في البدء وفي الختام

في الصيام وفي القيام

وفي الزكاة وفي الصلاة

في السفر وفي الحضر

بايعها الرسول وبايعت

قالوا: لم نجد لها حديثا كاذبا

فمن ذا الذي كذب؟

ومن الذي لحقها سلب؟

من ذا الذي لحقها اغتصب؟

مضت الأيام تتلوها الأيام

والأمَة في مسجدها

سيدة بين الكرام

طاهرة تلك الأيام

رائعة مثل الأحلام

حتى قفزت تغزونا

خفافيش في ظلام

قالوا يا ريحانة:

عودي

هذا الشارع لنا



وهذا المسجدُ لنا

وهذا..

قالت: ماذا؟

إن المساجد لله،

نعلمُ هذا قالت،

قالوا ولكنا قررنا:

وضعك في بيتك،

إنا نخشاك،

نخشى فتنتك،

نخشى حضور كان لكِ،

وفي الأحوال:

في كل الأحوال يا أمة الله:

قررنا سد الذرائع، وهو قانون شائع..

بالمختصر المفيد كل أمة تخشى ما لا تريد

ولا نزيد نحن أمة تخشى وهذه سياسة!!

المرأة والسياسة صنوان لا يفترقان إلا أن تكون هناك محبطات مثل المحيطات التي تغرق في زبدها اللآلئ وما أكثر

اللآلئ التي طمرت تحت القيعان أو التي تزين تيجاناً لم توضع فوق الرؤوس، بل قفل عليها في خزائن نفوس وضعت مفاتيحها في بئر الخوف الذي خنق الحق والمنطق ومن المنطق أن نعود إلى جذور الأشياء وهناك سنكتشف من خلال التدقيق في منطقية الأشياء أن المرأة تملك غريزة أقوى من غريزة الرجل فالمرأة وكما أثبتته دراسات علم النفس تتسم بصدق المشاعر والقدرة العالية على العطاء وتتمتع بقدر هائل من الإخلاص والتفاني والإدراك الداخلي أو الحاسة السادسة كما يقال، وتتمتع أيضاً بقدر أكبر من المرح، وهذه الروح المرحة كما هو ملموس تفك الكثير من التعقيدات النفسية إذا ما أتيح لها أن تنساب، وتتوافر للمرأة أيضا خبرة التكيف مع الظروف المتغيرة، انظروا إليها وهي تحدث طفلها بلغته التي كانت لها في طفولتها ولوالده، فيستجيب الطفل للغة الأم ويتجاهل لغة الأب التي ما تواصلت معه!

تتواصل لغة المرح ولغة الإدراك الداخلي ولغة التفاني والحاسة المعطاء عند المرأة فتكون نهرا يتفق غريزة معرفية ونعرف السياسة على أنها مادة جذب، لا تنفير، والمرأة قوة جاذبة ومن هنا تتأكد المعرفة أن المرأة والسياسة صنوان.

إذن لا منطقية لإنكار سياسية المرأة ولكنه الخوف الذي تأكد من خلال تتبعي لخطوات ذلك الرجل العجوز المهترئ الثياب "التاريخ" خاف رجل ضعيف فاستبعدت المرأة عن مجرى السياسة الذي بلله ذلك الضعيفُ بخوفه، فتراكمت حوله أتربة الاستبعاد بدلاً عن الاستيعاب!



ويظل المتراكم ثقيلا لا يتحرك حتى تأتي أيادٍ لا تخاف البلل لتخترقه لتمر منه الرياح ويمر منه الضياء، ولأن الضياء دائما لا يأتي إلا متأخرا تظل عواصف الأسئلة تزمجر باحثة عن الأجوبة؟

كانت المرأة طفلة تخاف..

وأصبح الطفل رجلايخاف،

السؤال: لماذا الخوف؟

لماذا صناعته؟

لماذا بيننا هوَ؟

ألم نكن أما وطفلا؟

ألم نكن أبا وطفلة؟

لقد أصبحنا أخوين،

وأصبحنا زوجين،

وأصبحنا أسرة لا يمكن

أن تكون إلا بامرأة.

نرى الأم كثيراً ما تحكم بسياسة النفس الطويل مع طفلها المشاكس الذي ينمو في سلام مع نفسه إلى أن يستلمه المجتمع الآخر فيواجه بالتحريض على الأنوثة وترسيخ كذبتهم بأنها عار ودمار على من يكون قريبا!!

فالولد يحقن بمضاد عن الفهم بكون الأنثى إنسانا مثله، فهي الناقص وهو الكامل في التفكير، لا حدود لتفكيره وحدودها بعض معدات البيت!!

لا يتذكر هذا الطفل بعد أن يكبر أن الحقنة التي منحت له، ليست إلا فيروسا غريبا حقن به، وليست من صلب مكوناته الحقيقية، فمكوناته الحقيقية تثبت أنه جزء منها وهي جزء منه والتكليف الرباني الذي أتى ليحاسبهما على عملهما يثبت أنهما نفس واحدة ولهما نفس المواصفات العقلية اللازمة للتكليف، فهي إذن تواجه العويل الذي يأتي من نصف المجتمع بسلبية واضحة أحيانا، وهذا مؤلم وأحيانا بتمرد واضح وهذا رأيناه في نماذج مرت ونماذج لم يتح لها التاريخ الظهور، لقد أوجد هذا المجتمع الذكوري الذرائع لسلب المرأة كثيرا من الحقوق التي شرعت لها وما وجدَ ذريعة واحدة ليترك المرأة إلى جانبه تسير، كان لا بد في نظر هذا المجتمع الذكوري أن يزيحها عن الطريق الذي يظن أنه لا يتسع إلا له وحده!!

هل يجوز لي أن أعود إلى كتاب الدكتورة كلاريسا بنكولا: نساء يركضن مع الذئاب؟

لعلي هنا أجيز لنفسي أن أعود مرات أخرى وأخرى، ذلك لأنني أحببت هذا..



ولنسمعها تقول "إن التجمد هو أسوأ شيء يمكن أن يُعايشه المرء"[1]، ولهذا هي تقول: "إن المرأة يجب أن لا تتعمد أن تكون بدون مشاعر وخصوصا تجاه نفسها ـ وحتى أكثر تجاه الآخرين، تقول كلاريسا: استمري، كافحي وكفي عن النحيب ولتكن وسيلتك في التغيير العمل"[2].

نحن نعمل الآن وقبلا عملت جداتنا وأمهاتنا في البيت، وفي الحقل وفي كل منشط رأين أنه فائدة لمجتمعهن لهذا لن أسمح لأحد أن ينفيني سوف أكون بنفس كينونتي التي خلقني الله عليها امرأة كاملة المواصفات الأنثوية، وهذا يقول لي إني امرأة مفعمة بحب أن أكون واصلة وليس قاطعة للنسيج الذي يدفئ الإنسان ويجمله، لم تضق السياسة بالمرأة، ولكن ضاق بها الأفق الضيق الذي عُدم السياسة فغرق في ضحالة أساءت له ولمجتمعه.

أنا بشكل شخصي لا أسعى ـ وهذا إجابة للسؤال الذي قد يُطرح ـ لأن أكون وزيرة أو سفيرة وإن تكن المرأة جديرة بممارسة العمل السياسي المسئول الذي هي مؤهلة له، ولكني أسعى لإعادة صياغة الفكر الذي يسعى لاستبعاد المرأة من العمل الفكري الاجتماعي الفاعل أو بين قوسين الحراك السياسي، إن للمرأة الحق في ممارسة العمل الذي هي مؤهلة له وقد أثبتت الأحداث

(1) نساء يركضن مع الذئاب كلاريسا بنكولا صفحة: 226.
(2) نساء يركضن مع الذئاب كلاريسا بنكولا صفحة: 227.

والتجارب أن المرأة إذا تساوت لها الفرص التي يحصل عليها الرجل فإنها تعطي مثل عطائه إن لم يكن أكثر دقة.

باعتبار أن عوائق اللغة عند الذكور تسع مرات أكثر من الإناث وأن الأنثى أفضل في إثارة الأحاديث بسبب الشبكة العصبية الممتازة بين نصفي الدماغ. كما قرأنا في الدراسة التي قدمت في اجتماع عالمي كان في برلين وحضره 2500 عالم ديموغرافي في علم السكان.

رأينا في كل الأحوال إن لم نقل في معظمها أن الثقافة الذكورية بنيت على احتكار المعرفة العلمية والإبداع وكأنها مولود للرجل أتى من غير أم، مقصية الموضوعية في هذا البناء، الذي يقوم على أساس من رمال متحركة، لقد أطلقوا أن المرأة لم تقم إلا بدور ثانوي في صنع الحضارة وذلك بسبب طبيعتهن البيولوجية، وهذه الحجة كذبتها البراهين كما رأينا، وهنا لعلنا نتذكر كتاب فيرجينيا وولف (غرفة خاصة) الذي قالت فيه: "إن تحجيم دور المرأة يعود إلى استحواذ الرجال على الثروة وإمساكهم بزمام الأمور في المجال السياسي والاقتصادي الذي يؤدي بالضرورة إلى استئثارهم بمفاتيح الحياة الثقافية"[1].

إذن استحوذوا بسياستهم على السياسة الظاهرة وتناسوا ما حمله التاريخ في ثوبه الممزق من بقايا إنجازات ظلت مثل قطع

(1) ابن الجوزي كتاب أحكام النساء صفحة: 199.



الألماس تضيء رغم محاولات صهرها، ورغم كل الغبار الذي يثار ليلا ونهاراً.

عدت إلى موطني وأنا مكتملة القناعة أن أولئك الذين عندهم الميل العدائي نحو الأنثى هم أعواد شجرية لا تحمل أزهارا، بل إنهم لا يقوون على حمل الزهرة حين تصبح ذات عطاء، لأن عطاءها سوف يثقل كاهلهم، لا أحزن أنا، فالأغصان كثيرة والأزهار سوف تشرق رغم تقرير التنمية البشرية الذي أصدرته الأمم المتحدة وجاء في العدد الخامس عشر منه والذي صدر في عام 2004 أن نسبة المرأة الداخلة في السياسة نسبة ضئيلة جدا ومتفاوتة، وذلك أكد لي بأن ذلك الرجل من جنوب الأرض مازال يعيش في محيط ذكوري له قاعدة عريضة على امتداد الجسد الإنساني، لقد أورد ذلك التقرير مؤشرات تنبئ عن تفاوت كبير في التسليم بوجود كائن إنساني كامل الأهلية والصلاحية في البناء والعطاء، لقد أبان ذلك التقرير تبايناً كبيراً في نسبة التقبل والتسليم بوجود الفكر السياسي للمرأة، لقد تفاوتت الدول المشاركة بين ما أسماه التقرير بدول التنمية البشرية المرتفعة وهي أمريكا والدول الأوربية غالباً، وقد حصلت المرأة فيها على حقوق التعيين والتصويت والترشيح للانتخابات البرلمانية في أوائل التسعينيات الميلادية ووصلت نسبة حصولهن على المستوى الوزاري 30٪ و40٪ إلى 50٪ في تلك الدول مقارنة بالدول التي أطلق عليها الدول المتوسطة والمنخفضة التنمية التي لم تحصل فيها النساء على بعض الحقوق إلا في منتصف التسعينيات وما بعدها بكثير.

هنا أدركت أن الرجل من جنوب الأرض لم يجهل فقط بلقيس وكيلوباترا، ولكنه جهل زمنه الذي يعيش فيه، لم يقرأ عن النرويج التي تحتل المرتبة الأولى في تقرير التنمية البشرية التي كانت الدولة الأولى التي أعطت النساء حق التصويت والترشيح للانتخابات في عام 1907م والتي كان نسبة وجود النساء على المستوى الوزاري فيها قد بلغ 42٪ هذا في النرويج وهذا ما قاله تقرير التنمية الصادر عن الأمم المتحدة العدد الخامس عشر، وأما ما خصصه عن الدول العربية التي أنجبت بلقيس وأنجبت الزباء وأنجبت كيليوباترا فإن قراءته لن تعيدني إلى الرحلة اللولبية بل إنني سوف أركض إلى حوار فتي بدأ يمتد إلى شواطئ تملأها السفن المنتظرة، سوف أركض إلى مجتمع بدأ يفيق على ضربات تطرق الأبواب الخشبية التي أرى الآن أن العالم قد بدأ يستبدلها بالأبواب الزجاجية الشفافة التي يزيد لمعانها كلما سقط المطر، وهنا لابد أن يسقط المطر بعزة الله[1].

هوامش:

في أثناء إعدادي لهذا الكتاب صادفتني بعض الطرف أحببت مشاركتكم قراء هذا الكتاب في قراءتها:

طلبت من مسئول عن المبيعات في مكتبة شهيرة يدعى "أبا أحمد" وهو بالمناسبة رجل معروف عنه بأنه قارئ ممتاز للكتب، أن

(1) كتاب أحكام النساء للحافظ عبد الرحمن بن علي بن الجوزي صفحة: 20.



يبحث لي عن كتاب: جاك جان روسو "إميل" فتعاطف معي ومن أجلي وتأسف وهو يقول لي: كيف تريدين إيميله؟!

لقد مات هذا الرجل منذ زمن طويل!!

الطرفة الثانية: لا يهم لا بد أن يأتي الكتاب وكان الطلب من خارج البلد هذه المرة، من سوريا الحبيبة وجاءت البشرى، جاء كتاب جان جاك روسو، جاء إيميل، وعندما استلمته، كان الكتاب: كيف تبني إيميلا في الشبكة العنكبوتية!!

الطرفة الثالثة: لقد لجأت في كثير من المرات للإنترنت في بحثي هذا وحمدت الله كثيرا أنني قد تزوجت قبل أن أمس أو أتعرف على الإنترنت.. أتعلمون لماذا؟

لقد قرأت تهديدا شديدا نقلته إحدى الصحف المحلية من رجل، قال هذا الرجل: إنه لن يتزوج أي فتاة تستخدم الإنترنت!!.

هامش أخير:

وأنا أدور حول طاولتي الصغيرة في رحلتي اللولبية حول العالم كنت أهذي بهذه الكلمات التي لا أستطيع أن أقول إنها شعر ولكني أيضا أستطيع أن أؤكد أنها كلمات نابعة من سخونة الصفعة التي وجهها للمرأة ذلك الرجل من جنوب الأرض، الذي استثنى المرأة من كل علم بالسياسة بينما هي أم السياسة وأختها الشقيقة التي تزدهر في حضنها وتكبر.

تصور أن امرأة تختلف معي!!

يقول رجلٌ من جنوبِ الأرض:

يا صاح: تعلمنا السياسة،

ففي هذه الحرب تعلم طفلنا السؤال!!

تعلم طفلنا أن لا ينصت للذي يقال

قال الرجل في لحظة انفعال:

حتى المرأة تعلمت كيف تنتقد الرجال!!

وقال الرجل عبر الإذاعة:

تصور أن سيدات يقترفن حديث الحرب!!

تصور ماذا بعد هذه الحرب؟

ترى ماذا سيحدث غداً؟

هذي الحرب خربت نظام الكون،

امرأة تتخلى عن المرآة،

وتتسمر أمام شاشة الأخبار،

تنتقد الرجال!!

قالت: هؤلاء الذين يظهرون

في الأخبار، تدعون أنهم أخيار،



تضحك من مُسماهم!!

تقول: تبا لكم ولهم،

كيف تقولون إنهم أخيار؟

هؤلاء..؟!!:

إنهم أصفار

على الشمال أصفار

وعلى اليمين أصفار

وهم صغار، تقول يا صاح:

خائف أنا من اختلال الوضع،

تصور أن امرأتي تختلف معي!!

تقيمني!!

تضعني في زاوية البحث عن أعذار؟!

هذي الحرب، يقول الرجل:

أنست المرأة، المرآة

وأنستها فوق هذا كل أطباقي!!؟

ليس لدي الآن أطباقي المشتهاة!!

اليوم يا صاحبي أراها تجد لها

أنصارا من أقاصي الأرض،

ولكن ماذا عن غدٍ؟

إنها تقرأ اليوم عن الرئيس منديلا

وعن النائبة التركية مروة كفاكتشي

تقرأ كتباً كثيرةً حول الحرب والسلام

وتتساءل عن وجود الرأي الآخر

حفية به يا صاح،

تصور أنها تنعتنا بالمتخلفين

وتقول إننا منهزمون

وإننا سارقون لحقوقها التي منحها لها الله

وتقول إننا لا نسمع إلا صوتنا:

صوتنا المبحوح: قالت،

تصور يا صديقي:

صوتي هذا المبجل

والمجلجل

بدت غير خائفة منه!!

إنها تحلل الأصوات!!



وتقول إننا أموات،

وتقول إننا لا نملك الكرامة،

وإن الشهامة ضاعت من رحابنا،

وإن المجال واسعٌ للاختلال!!

في الحقيقة يا صاحبي إني

أرى الاختلال قاعداً وقائماً

وفي المنحيات وفي التلال،

هذه المرأة أصبحت تختلف،

وأرى الطفلَ يسمعُ صوتها فينعطف

يذهب نحو السؤال

وينعطف نحو الخيال،

أنا لا أعرفُ كيف أردها

فحنانها يأخذه إلى أركانها

أنا يا صاحبي ركني الأول

أراه ينعطف

وركني الثاني أراه ينجرف

أنا الآن وحيد خائف مثل

القائد الحربي عندما يريدُ أن

ينام فتطل عليه آلاف الجثثِ،

تقول امرأتي إنني أصبحتُ

مثل "رجال" السياسة ليس لهم إلا

العواصف يثيرونها والعواطف

تقول: إنهم يظنون الآخرين قاصرين

أنت مثلهم قالت: تعود مثقلاً بالقيود التي واجهتك

فتمارس في الصباح قصفك الصوتي الذي يأتي

عاصفا مدمرا للعواطف الجميلة

أنا لا أعرفُ أن أسيطرَ على امرأتي

حارقا هذا الاعتراف،

ولكن يشفع لي أن كل شيء أصبحنا نعترف به،

أخجل قليلا أن أعترف، أخجل يا صديقي..

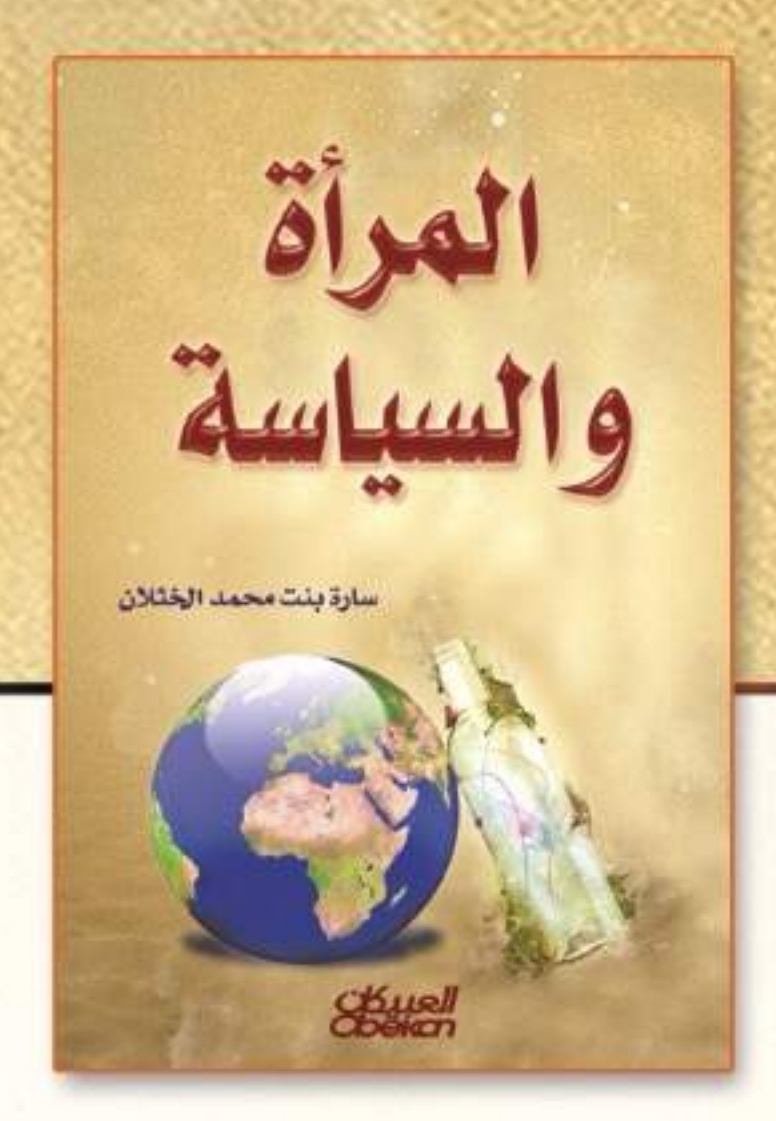
ولكن هل هنا أحد غير خجلٍ من نفسه؟

عودة أخيرة:

عدت وأنا لا أختار بين "القوتين" المرأة والرجل، عدت وأنا لا أختار بين أمي وأبي، بل إني اخترت الاتحاد بعد أن وجدت ذاتي



في أمي وأبي ظل عريقا في شرايبني، لقد تتوجتُ زهرة على ساق يتجذر في رحم الأم، يتجذر في الأرض التي حملتنا سويا الساق والزهرة وغريزة حب الحياة ومثابرة أسطورية لاستمرار الذات، ولا ساق بدون زهرة ولا زهرة بدون ساق، لقد تفتحت الزهرة فوق الأغصان المستقيمة وعانقت الشمس فيما ظل الغصن قويا متجذرا لا تسقطه رياح تعصف، بل سوف تخمد لا محالة وإن خلفت بعض الغبار الذي يتعبنا وأتعبنا كثيراً، ولكنه لن يقتلنا، فالله معنا ما دمنا معه.


المرأة
والسياسة
سارة بنت محمد الخثلان
العبيكان
Obeikan


9 789960 541839